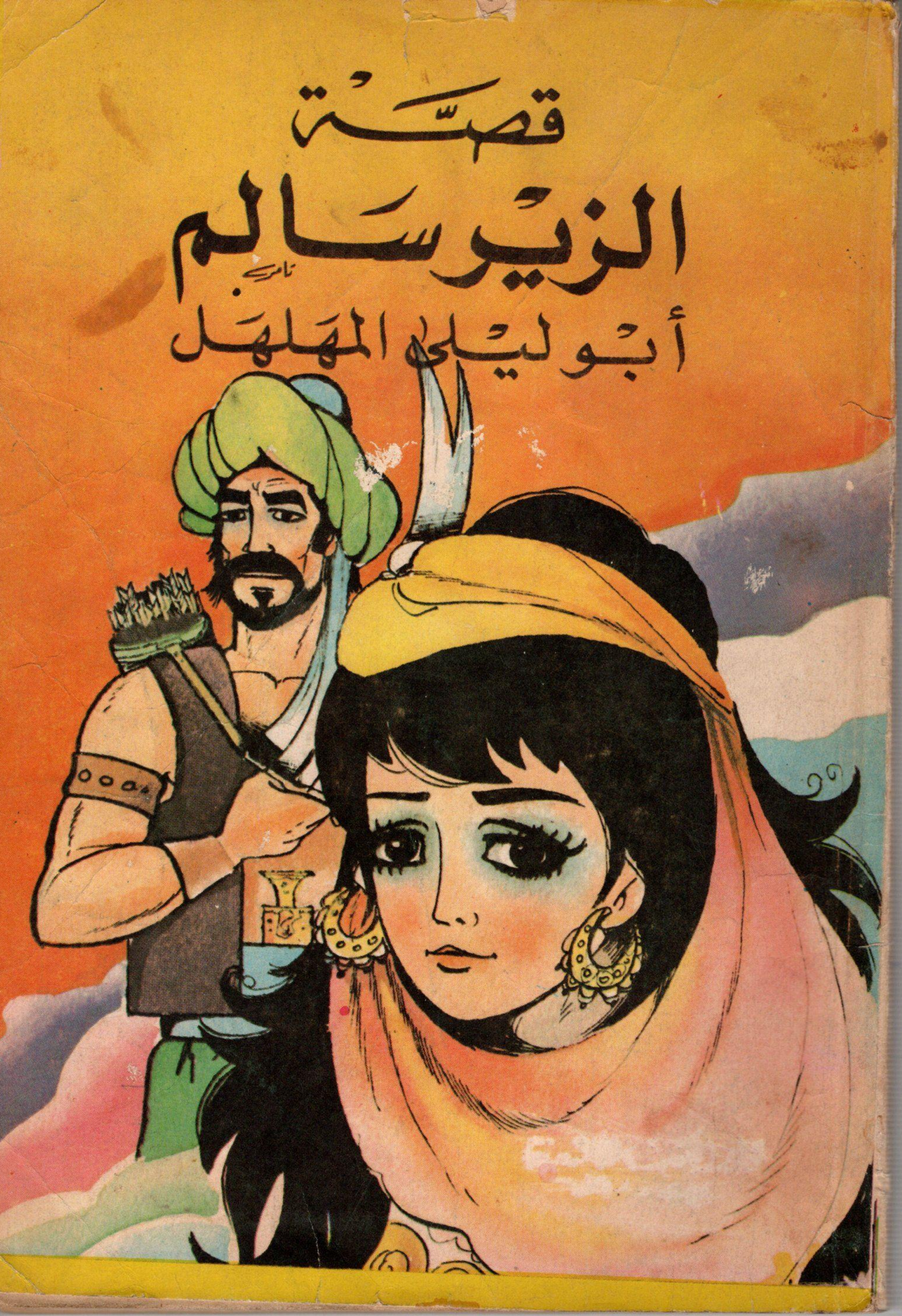
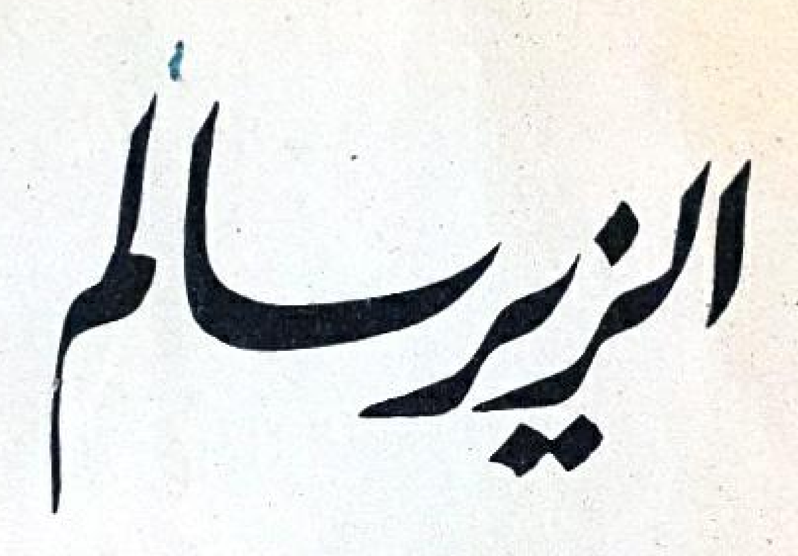

قصة
الزير سالم
أبو ليلى المهلهل



قصة

ابو ليلى المهلهل

تقديم واشراف
كمال لطيف سالم

المكتبة الشرقية ـ بغداد

المقدمة

للطفولة ذكريات ترسخ في الذاكرة وتبقى لاصقة بها ابد الدهر. لا يأخذها الزمن في زوايا النسيان. فحياة الانسان تبدأ في طفولته ويأخذ سيره في مجال الحياة حيث يصير رجلا ثم شاباً وكهلا وشيخاً. ولكن ملاعب الصبا وذكريات الحياة الاولى تبقى لصيقة به حتى آخر لحظة من حياته. عشت في بغداد وترعرعت في محلاتها و «دربوناتها» الضيقة بالبيوت العامرة بالاخلاق والتقاليد. ولازالت صور محلات «بني سعيد» و «خان لاوند» و «الفضل» راسخة في ذهني اراها أمامي كما ارى شريطاً سينمائياً يعرض الاحداث بكل تفاصيلها ووقائعها. في ايام شهر رمضان المبارك كانت بعض المقاهي في بغداد تمتليء بالناس ليلا حيث السهر اللذيذ بين الاصحاب والاقران. وكانت هناك مقاهي يتردد عليها من يطلقون عليه اسم «الشيخ» او «الملا» حيث يقرأ لهم فصولا من السير الشعبية والأساطير الموروثة. والناس تستمع اليه بشغف وشوق ناسية كل همومها ومتاعبها ومنصرفة الى بطولات «عنتر بن شداد» و «الزير سالم» وكانت هناك مقهى في محلة «العزة» كان يقرأ فيها هذه السير والاساطير رجل وقور اسمه «الملا خليل». وكان جدي رحمه الله وهو من ابطال «الزورخانة» في بغداد يأخذني الى هناك ليلا لاستمع الى هذا «الملا» وهو يروي لنا بصوته الجهوري الضخم سيرة عنترة بن شداد وغيره من الابطال فيأخذنا الحماس لشجاعة هؤلاء الابطال وشهامتهم ونخوتهم ودفاعهم عن اهلهم وعشيرتهم من قبل الاعداء انها صورة كانت تبعث فينا روح الرجولة والشهامة. وللأسف ان هذه المقاهي او الندوات قد انقرضت الآن وزالت.. ولكنها لازالت عالقة في اذهان جيلنا.

وللأساطير والسير الشعبية اهميتها الكبيرة في التاريخ الادبي للشعوب. وقد كتبت عنها الدراسات الكثيرة وتخصص فيها باحثون افاضل، تناولوها بالبحث والدرس والتحليل. ولعل من احسن من كتب في ذلك هو العلامة الراحل الدكتور عبدالحميد يونس، الذي توفي. فقد تخصص في هذا الموضوع ودرسه في الجامعات المصرية وكتب الكثير من الدراسات والبحوث التي تعتبر من احسن ما كتب في هذا الموضوع. ان ابناء الجيل لم يطلع اغلبهم على هذه السير والأساطير. ولعلي اذ اقدم للقراء الكرام قصة ـ الزير سالم ـ فأنما اقدم لهم شيئا من التراث ليرى القاريء قدرة اجدادنا على نسج هذا الخيال الممزوج بالواقع مزجاً ساحراً وجذاباً يستهوي النفوس، كما يثير فيهم النخوة والرجولة والشهامة التي هي من صفات اجدادنا العظام.

المقدم

بسم الله الرحمن الرحيم

اقول بعد حمد الله . والصلاة والسلام على رسله وانبياه هذه سيرة الاسد الكرار والبطل المغوار ، الذي شاع ذكره في الاقطار واذل بسيفه كل صنديد وجبار . المهلهل بن ربيعة صاحب الاشعار البديعة والوقائع المهولة المريعة . وما جرى له في تلك الايام مع ملوك التبابعة وفرسان الصدام من الحوادث والوقائع التي تطرب القاريء وتسر السامع ولكن قبل الشروع في هذه السيرة العجيبة واخبارها المطربة الغريبة . راينا ان نذكر طرفا من اخبار العرب اهل الفضل والادب . افادة للمطالعين ونزهة السامعين فنقول وبالله المستعان ان اصل العرب من قديم الزمان وسالف العصر والاوان من والد نزار بن معد بن عدنان وكان قد ولد لنزار المذكور اربعة اولاد من الذكور كل منهم بالفضل والباس مشهور هم مضر وانمار واياد وربيعة فارس الطراد ومنهم تشعبت قبائل الاعراب وملأت البراري والهضاب فمن نسل اياد التبابعة الذين اخبارهم بين الناس شائعة ومن نسل ربيعة ومضر وانمار عرب الحجاز ونجد والعراق وسكان القفار وكانت العرب في ذلك الزمن منقسمة الى قسمين وهما قيس ويمن فسكان اليمن هم اليمنيون وباقي العرب هم القيسيون وما زالت العرب تنمو وتكثر وتمتد في البر الافقر حتى اشتهرت العشائر والقبائل وظهر الامير ربيعة واخوه مرة

ابناء وائل . وربيعة المذكور هو ابو الزير الفارس المشهور وصاحب هذه السيرة ووقائعها الشهيرة .

قال الراوي وكان ربيعة في ذلك الزمن من جملة ملوك العربان واخوه مرة من الامراء والاعيان وكانت منازلهم في اطراف بلاد الشام وكانا يحكمان على قبيلتين من العرب وهما بكر وتغلب . وولد لربيعة خمسة اولاد وهم كليب الاسد الكرار وسالم البطل الشهير الملقب بالزير وعدي ودريعان وغيرهم من الشجعان ، وكان له بنت جميلة الطباع شديدة الباع تعارك الاسود والسباع اسمها اسما وتلقب بضباع واما الامير مرة فله عدة اولاد ابطال امجاد قد اشتهروا بالشجاعة وقوة الباس منهم همام وسلطان وجساس وله بنت جميلة يقال لها الجليلة فاتفق في بعض الايام ان الامير مرة دخل على اخيه ربيعة في الخيام وخطب ابنته ضباع لابنه همام وخاطبه بهذا الشعر والنظام :

يقول امير مرة في قصيد	معانيه حكت درر الجواهر
ربيعة يا اخي اسمع كلامي	ايا قهار فرسان الجبابر
اريد ضباع بنتك يا ربيعة	الى همام ايا فخر الاكابر
ولما ينتشي ابنك كليبا	ويركب يا اخي الخيل الضواهر
وتكبر يا ملك بنتي الجليلة	فخذها له وزوج لا تشاور
وهذا يا اخي اقصى مرادي	ايا صدام آساد الكواسر
تبدي له ربيعة ثم قال له	كلامك يا اخي مثل العنابر
تريد ضباع خذها يا مسمى	وزوجها لابنك لا تشاور
ومعها مية خادم يخدموها	ومية قعود مع ميتين قواطر
ومعها مية ناقة كالعرائس	زياد ومسك فايح دوم عاطر
ومعها مخمل الفاخر واطلس	لغيرك من ازواج او اصاهر
وهمام ابن مرة مثل ابي	ومية جارية غير السرائر
هلم انهض وزوجها بسرعة	وافرح فيه واعمل عرس فاخر

فلما فرغ ربيعة من كلامه اعتنقه اخوه هرة وشكره على حسن اهتمامه ثم باشر القوم بأمر للعرس وعقدوا عقد الامير همام على ضباع بنت الكرام كما جرت عادة الملوك العظام فأولموا الولائم وذبحوا الذبائح واطعموا كل آت ورائح وما زالوا في سرور وبسط وانشراح ودق طبول ولعب خيول وشرب مدام مدة عشرة ايام ثم زفوا ضباع على الامير همام فكانت ليلة عظيمة لم يسمع بمثلها في الايام القديمة حضر فيها كثير من سادات العرب واهل

المناصب والرتب ودخل همام على ضباع وحظي بحسنها وجمالها ونالت منه غاية آمالها لانها كانت تحبه محبة شديدة وتوده مودة اكيدة وسوف يظهر لهما ولدان وهما شيبوم وشيبان سيأتي حديثهما بعد الان هذا ما كان من خبر بني قيس المدعوين بالقيسية ولنتكلم الان عن حديث اليمنية وما جرى لهم في تلك الايام من الامور والاحكام والحروب والاهوال في ميادين القتال فنقول وعلى الله الاتكال :

كان في قديم الزمان في بلاد اليمن ملك عظيم الشأن صاحب جنـــد واعوان وابطال وفرسان يقال له الملك حسان ويكنى بالتبع اليماني ولم يكن له بين الملوك ثاني وهو اول اليمنية كما كان ربيعة اول القيسية وكــان شديد البأس قوي المراس طويل القامة عريض الهامة لا يعرف الحلال من الحرام ولا يحفظ العهد والزمام وكان يحب النساء الملاح والمزح معهن في المساء والصباح ومن اعماله الغريبة واصطلاحاته العجيبة انه كان في كل ليلة يتزوج بصبية من بنات الملوك التي تخافه وتخشاه وتحسب حسابه وتترضاه وتحمل له الخراج وتعلل له الخاطر والمزاج وكان عنده من الابطال والفرسان الف الف عنان وهم عشر كرات مستعدين للحرب والغارات وكان يشرب المدام في الليل والنهار ولا يبالي من الاهوال والاخطار وكان لــه وزير عاقل خبير اسمه نبهان قد امتاز على الاقران بفعل الخير والاحسان وكان ينهي الملك حسان عن ارتكاب الظلم والعدوان فاتفق في بعض الايام ان التقى الملك تبع في نبهان وقال له بحضور الامراء والاعيان هل سمعت ايها الوزير العاقل الخبير عن ملك كبير عنده رجال كرجالي واموال كأموالي فقبل الوزير الارض ووقف في مقام العرض وقال اعطني الامان يا ملـــك الزمان فأحدثك باخبار ملوك الامم اصحاب البطش والهمم وما عندهم من الجيوش والعساكر والعدد والذخائر فقال عليك الامان من نوائب الزمـــان فقال اعلم ايها الملك العظيم انه لا يوجد مثلك في هذه الاقطار من الملـــوك الكبار اصحاب المدن والامصار ولكن يوجد خارج البحار عرب من اهـــل الشجاعة والاقتدار عددهم كثير وجيشهم غفير يقال لهم بنو قيس وسيدهم اسمه ربيعة ، ولهم في الحروب والغارات وقائع مهولة مريعة وهم مـــن اولاد مضر الاسد الغضنفر وقد امتلكوا اكثر جهات الارض في الطـــول والعرض وهم اعظم منا واكثر واشد بأسا . فلما انتهى الوزير من هـــذا الكلام وسمعه من حضر في ذلك المقام اغتاظ وتأثر وكان عليه اشد مـــن ضرب السيف الابتر فصاح على الوزير وزعق وقال له بكلام الحنق يا تيس

تفضل على بني قيس وما دام الامر كذلك لا بد ان اقصدهم بفرسان المعارك واقتل مليكهم ربيعة واوردهم موارد المهالك واخرب بلادهم وامحو بالسيف آثارهم واملك تلك الديار بالقوة والاقتدار ثم انشد هذه الابيات على مسامع الامراء :

يقول التبع اليمني المسمى ... بحسان فما للقول زورا
ملكت الارض غصبا واقتدارا ... وصرت على ملوك الارض سورا
لقد اخبرت عن بطل عنيد ... شديد الباس جبار جسورا
وقالوا انه يدعى ربيعة ... امير قد حوى مدنا ودورا
فقصدي اليوم اغزوه بجيشي ... واترك ارضه قفرا وبورا
ابا نبهان اجمع لي العساكر ... فيأتوا فوق خيل كالنسورا
وجهز الف مركب يا وزيري ... وهيئهن في وسط البحورا
اسير بهم الى تلك الاراضي ... وامتلك القلاع كذا القصورا
ويغنم عسكري منهم مكاسب ... ازوجهم بنات كالبدورا
ويبقى الحكم لي برا وبحرا ... ويصفي خاطري بعد الكدورا

فلما انتهى التبع من شعره ونظامه وفهم الوزير فحوى حديثه وكلامه ندم الذي اعلمه بهذا الخبر ولم يعد يمكنه الا الامتثال وتجهيز الفرسان والابطال الى الحرب والقتال فنزل من الديوان وهو مقهور غضبان وامر بدق الطبل لاجتماع العساكر وكان هذا الطبل يقال له الرجوح وهو من اعظم الطبول وكانت تدقه عشرة من العبيد الفحول وهو من صنع ملوك التبابعة العظام وكانت الناس تسمع صوته من مسافة ثلاثة ايام وكان الملك حسان اذا غزا قبيلة من العربان يأخذ ذلك الطبل معه واين ما ذهب يتبعه ولم يزل هذا الطبل في ذلك الزمان يتصل من ملك الى ملك حتى اتصل الى الامير حسن سيد بني هلال المشهور بالاحسان والافضال فلما دقت العبيد الطبل وسمعت صوته قواد الفرسان اقبلت على الوزير من كل جهة ومكان فسلموا عليه وتمثلوا بين يديه وسألوه عن دق الطبل الرجوح فحدثهم بذلك الايراد والمسير الى تلك البلاد للغزو والجهاد ثم بعد ذلك فرق عليهم السلاح وآلات الحرب والكفاح ولم تكن الا مدة قصيرة حتى تجهزت المواكب وتجمعت العساكر من كل جانب وكان من جملتهم عشرة ملوك كبار كل ملك يحكم على الف بطل مغوار فحضروا امام الملك تبع حسان فسلموا عليه وقبلوا الارض بين يديه وقالوا له نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك فشكرهم وخلع عليهم الخلع الفاخرة والتحف الباهرة ووعدهم بالمال

الجزيل واهل خير جميل ثم أمر الوزير للاستعداد والرحيل على غزو بني قيس وتلك البلاد وطلب منه ان يأتي بالعساكر لتمر من تحت القصر وهي في السلاح الكامل ليشاهد احوالها ويرى سلاحها وأثقالها فامتثل الوزير امره وفعل كما ذكر فانشرح صدر الملك عند رؤية العساكر والجحافل وهي في السلاح الكامل والاستعداد للحرب والقتال فانشد وقال :

يقول التبع الملك اليماني صفا عيشي وقد طابت فؤادي
عساكر كالاسود اتتني تسري الوف راكبين على جياد
عليهم كل درع من حديد له زرد كما عين الجواد
وفيهم كل جبار عنيد يقاتل الف ليث في الطراد
أسير بهم لذاك الاسير حالا واقتل كل من يطلب عنادي
وارجع تماما في طيب عيش ولا يبقى لتبع من يعادي
الا يا عسكري قروا وطيبوا على نيل المقاصد والمرادي
ومني ابشروا فيما تريدوا ومهما تطلبوه فبازدياد

فلما فرغ الملك من شعره ونظامه هتف الامراء واكابر القواد والجيوش والعساكر والاجناد بالدعاء للملك بالنصر وطول العمر وقد استبشروا في غزو تلك البلاد وايقنوا بالنجاح وبلوغ المراد ثم نزلت العساكر والاجياد في المراكب مع الامراء والقواد وكان الملك حسان قبل خروجه من الاوطان قد سلم زمام ملك اليمن الى الصحصاح بن حسان وهو ملك كبير وفارس شهير وكان الملك حسن يميل اليه ويعتمد عليه وأوصاه ان يجمع له المال في كل عام ويرسله الى بلاد الشام ثم نزل مع الوزير في موكب كبير واقلعوا من الاوطان وقصدوا بلاد الحبش والسودان وعند وصولهم الى ذلك الجانب القوا المراسي ونزلوا الى البر بالقوارب ونصبوا الخيام والمضارب وفي الحال ارسل الملك تبع وزيرا اسمه زيد بن عقبة بألف فارس منتخبة ليعلم ابن اخته الرعيني بقدومه الى تلك الاقطار لانه كان ملك تلك الديار ويأمره بسرعة الحضور وتقديم الذخائر الى الجيش والعساكر فلما علم الرعيني بذلك الخبر بادر في الحال بالفرسان والابطال والمهمات الثقال وسار الى ان التقى بالملك حسان جالس في صيوانه ومن حوله الوزراء والاعيان فسلم عليه وقبل يديه فقبله الملك حسان بين عينيه ثم قدم الرعيني الذخائر للعسكر وسأله لماذا اتى الى تلك الجهات فأعلمه خاله حسان بأنه قاصد غزو بني قيس وتلك الاطلال ثم باتوا تلك الليلة في الخيام وفي الصباح امر الملك العشرة الملوك العظام ان يتأهبوا للرحيل الى بلاد

الشام وينقسموا الى قسمين ويتفرقوا الى فرقتين فخمسة تسير من اليمين وخمسة من الشمال واوصاهم كلما اقبلوا على مدينة يملكوها في الحال ويقيموا فيها نائبا من سادات الرجال فاجابوا امره في الخضوع والامتثال فعند ذلك دقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول وارتفع الصياح ولمع السلاح وترتبت الكتائب وسارت المواكب في تلك البراري والسباسب وكانوا كلما وصلوا الى مدينة امتلكوها بالسيف المهند حتى ملكوا اكثر البلاد وطاعتهم العباد وما زال تبع يتقدم حتى اقبل الى مدينة الشام واحاط بها من جميع الجوانب وكان نائب الملك ربيعة في الشام يدعى زيد بن علام وكان ربيعة وأخوه مرة في وادي الانعمين وهو مكان يبعد عن دمشق مسافة يومين فأرسل الملك تبع الى نائب الامير ربيعة احد الوزراء العمد يطلب منه الخضوع لامره وتسليمه دمشق فلما وصل اليه ودخل عليه واعلمه بالخبر وما قال له تبع فأجاب بالسمع والطاعة ونهض مسرعا من تلك الساعة واخذ معه الاموال والذخائر وخرج في جماعة من الاكابر حتى التقى تبع في الخيام فحياه بالسلام فترحب به غاية الترحيب وامر له بالجلوس فجلس قريبا منه فقال له تبع هل انت حاكم الشام قال نعم ايها الملك الهمام فسأله عن حكم ربيعة فقال له انه ظالم على قومه وكل الرعاة تشكو من ظلمه وتتمنى له الاذى والضرر والموت الاحمر ، والحمد لله رب البرية الذي اعاننا بك حتى نتخلص من نير العبودية وسنخدمك خدمة مرضية ونصير لك من جملة الرعية .

وما كان قوله ذلك لتبع الا من الخوف والفزع فتبسم تبع من هذا الكلام وقال له ابشر ببلوغ المرام فانك ستكون نائبي في بلاد الشام وتحمل لي الخراج كل عام فقال سمعا وطاعة يا ملك الزمان وجوهرة هذا الاوان ثم عرض عليه الذخائر وما جاء به من نفيس الجواهر فانشرح صدر تبع وخلع عليه الخلع وقال له اذهب الان مع وجوه اهل المدينة وباشر في الضيافات والزينة فاننا سنحضر الى عندك بعد ثلاثة ايام ونتفرج على الشام ثم نرجع الى المضارب والخيام فقال اهلا وسهلا الارض ارضك والبلاد بلادك ثم ودع الملك وسار بمن معه من الاكابر والتجار واخذ يسعى في امر الوليمة وقد خامر اهل الشام الخوف والفزع من السبي والهزيمة هذا ما جرى لهؤلاء من الاخبار واما ما كان من ربيعة وبني قيس الاخيار فانهم لما سمعوا بقدوم الملك تبع الى تلك الديار وافتتاحه المدن والامصار اخذهم القلق والافتكار وكان قد بلغ ربيعة قول زيد الى تبع حسان وكيف

انه نسبه الى الظلم والعدوان مع انه كان من اعدل ملوك الزمان فاخـــذه الغضب والقلق وزاد به الحنق فجمع اكابر قومه واخوه مرة ومن يعتمد عليهم من اهل الشجاعة والقدرة وانشد يقول :

غنى ربيعة شعرا من ضمايـره ... ودمع العيون على الوجنات طوفان
يا قومنا اسمعوا وامتثلوا قولي ... انتم بنـو قيس ابطال وشجعان
كنا بخير وكان السعـد يخدمنا ... نقري الضيوف ونكسي كل عريان
جانا من البحر ذا التبع يحاربنا ... صعب المراس شديد البطش سلطان
معه رجال عوابس الف الف بطل ... من كل درغام قلبـه مثل صوان
جاز البلاد ومعـــه امير حالفه ... الكل طاعوه القاصـــي مع الدان
اتى الينا وما حسب حساب لنا ... منا ومن غيرنا هـو ليس فزعان
انا بقيت كبير السن يـا عزوتي ... مالي جلد القاه في وسط ميدان
مرة اخوي بهذا الراي ساعدني ... همام يا ابن اخي ما كنت كسلان
كيف العمل ننهزم او نقابلـــه ... شوروا الصواب اخوتي والخلان

فلما فرغ ربيعه من شعره قالت السادات والفرسان ان هذا الامر لا يطاق وعلقم مر المزاق وليس لنا غير الهزيمة فهي اوفر غنيمة والا حكـم سيفه فينا ولاشانا عن بكرة ابينا . وبعد مداولة وجلسة مستطيلة استقر راي الجمهور ان يذهبوا الى عند تبع المذكور فيسلموا عليه ويقبلوا يديه ويطلبون الامان ويقدمون له التحف الحسان لعلهم يتخلصون بهذه الوسيلة من تلك الورطة الوبيلة . هذا ما كان من امر بني قيس واما الملك تبع فانه في اليوم الثالث ركب في وجوه قومه وتوجه الى مدينة الشام لاجل الزيارة كما تقدم الكلام فلما بلغ الغاية ووصل السراية التقاه زيد بالتعظيم والاكرام واجلسه في أعز مقام وصنع له وليمة عظيمة ذات قدر وقيمـة فأحسن اليه وخلع عليه وفرق التحف الثمينة على اكابر اهل المدينة ثم رتب عليهم الخراج في كل عام وبعد ذلك رجع الى المضارب والخيام وهو مسرور الفؤاد على المرام . واما بنو قيس فمنهم جمعوا التحف الحسان والاموال التي يكل عن وصفها اللسان من نقود وجواهر وذخائر ومهمات قماش فاخر حملوها علىماية جمل وركب ربيعة واخوه مرة في ماية بطل وساروا معهما جماعة من الامراء والقواد الذين عليهم الاعتماد وجدوا في قطع البراري والقفار حتى وصلوا الى تلك الديار وعند وصولهم الى المضارب نزلوا عن ظهور النجائب واجتمعوا بخزندار الملك تبع واسمه ثعلبة بن الابشع فقدموا له تلك التحف الحسان ليقدمها الى الملك تبع حسان ويعلمهم بقدومهم الى

الديار فقدمها الخزندار واعلم الملك بمجيء القوم في ذلك اليوم وان مرادهم الدخول عليه ليتشرفوا بتقبيل يديه ويحصلوا على امانه ويكونوا من جملة خدامه واعوانه فتبسم تبع والتفت الى وزيره نبهان وقال له اين ملوك قيس العظام الذين قلت عنهم ما هو كذا وكذا من الكلام واني لا اصلح ان اكون لهم من جملة الخدام وهم قد حضروا الان لتقبيل اقدامي ويكونوا من جملة اعواني وخدامي . فقال الوزير وقاك الله من كل شر وضير وجعل عاقبة هذا الكلام الى خير . فبينما بالحديث والكلام اذ دخل على الملك امراء بني قيس الكرام فقبلوا الارض بين يديه ووقعوا على رجليه فأخذ تبع ينظر اليهم ويتأمل فيهم فحانت منه التفاتة فنظر الامام ربيعة واقفا في باب الصيوان وهو مثل الاسد الغضبان وكان الامام ربيعة لم يدخل مع قومه على الملك تبع حسان لان نفسه ما كانت تطاوعه على الذل والهوان فقال الملك تبع من هذا الانسان المعجب بنفسه غاية الاعجاب ولا حاسب لي ادنى حساب فقالوا هذا الاسد الغشمشم سيد بني قيس الامير ربيعة المعظم فلما سمع تبع هذا الكلام شخر ونحر وتبدل عيشه بكدر واحمرت عيناه حتى صارت مثل الجمر ثم ناداه فحضر وقد تعجب من عظم هيبته وبياض لحيته فسلم ربيعة عليه ووقف بين يديه فقال تبع انت سيد بني قيس الكرام فقال نعم ايها البطل الهمام فقال ولماذا اسأت الادب واحتقرتني دون باقي امراء العرب الذين تمثلوا امامي وقبلوا يدي واقدامي فتقدم الان وقبل رجلي يا مهان والا قتلتك بحد الحسام وجعلتك عبرة من الانام فاستعظم ربيعة ذلك الامر واحمرت عيناه من الغيظ حتى صارت مثل الجمر لانه كان أشرفهم حسبا واعلاهم نسبا ثم قال اعلم يا ملك الزمان اني مثلك من ملوك العربان صاحب قدر وشان وما ذلت نفسي لانسان وهذه بلادي ملك آبائي واجدادي وانا ما تعديت عليك ولا اوصلت اذيتي اليك بل انت شننت علينا الغارة وامتلكت بلادنا والحقت بنا الخسارة وذلك بدون سبب فكفى الذي فعلته ايها الملك المهاب وقد بلغت منا مقصدك . فلا انت تقبل يدي ولا انا اقبل يدك . فلما سمع تبع منه هذا المقال خرج عن دائرة الاعتدال وقال يا نذل بني قيس واذل من التيس اني ما اتيت من بلادي بهذا الجمع المتزايد الا لاجعل زمام الدنيا في قبضة رجل واحد ثم انه صاح على الاعوان والخدام بصوت كالرعد في الغمام يا ويلكم اقبضوا على هذا الشيخ الكبير ومن معه من بني قيس الطناجير وقيدوهم في الجنازير وامتثلوا أمره في الحال وقيدوا ربيعة وباقي الرجال وبعد ان قيدوه امر بشنقه فشنقوه

وهكذا انتهت حياته وانقضت ايامه وساعاته وبقي معلقا ثلاثة ايام حتى جاء باثبه الامير زيد الى الشام فغسله وكفنه ثم واراه التراب وجاءوا بباقي الرجال وارادوا ان يفعلوا بهم مثل تلك الفعال فانهزم الامير مرة من بين ايدي الفرسان وتقدم الى عند الملك تبع حسان وقال الامان يا ملك الزمان نحن الان عبيدك وطوع ايديك وجميع امورنا راجعة اليك : فاعفو عنا فقد صرت لنا ملك ثم اشار يخاطبه بهذا الشعر والنظام :

مقالات لمـــرة فـي بيـــوت	صروف الدهر قد جازت علينـــا
الا يا امير تبـع يا مسمـــى	ابا ملك الورى فـي العالمينـــا
قتلت اخي ربيعـــة يا مكنـى	واشمت العـدا والحاسدينـــا
وتقتلني انا يـا امير بعـــده	تهد وصولنـــا طول السنينـــا
ونحنا يـا ملك حكام مثلــك	علـى كل القبائل حاكمينـــا
وقـد حاربتنـــا وحكمت فينا	ونحن اليوم في حكمك رضينـــا
وبعد اليوم صرنـا لك رعايـــا	على طول الليالي والسنينـــا
وندفع دائما عشر المـــال حالا	فاحكم ما تريد اليوم فينـــا

قال الراوي فلما سمع تبع شعره ونظامه عفا عنه واعطاه الامان وكذلك صفح عن باقي الامراء وجعلهم من جملة الرعايا يدفعون له في الخراج في كل عام وقال لمرة يا سيد القوم قد صممت ان اتخذ مدينة الشام كرسي مملكتي بعد هذا اليوم فسر انت واهلك من هذه الديار وتفرقوا في الاقطار وكونوا لاوامري سامعين ولحكمي خاضعين طائعين ثم انه قسمهم الى عدة فرق واقام على كل فرقة ملكا من سادات بني قيس فجعل الامير مرة على الفرقة الاولى وامره ان يسكن مع قومه في نواحي بيروت وبعلبك والبقاع وجعل الامير عبس على الفرقة الثانية وامره ان يقيم في بلاد العراق وتلك المنازل والآفاق وكان الملك تبع قد شتت بنو قيس بهذه الوسيلة خوفا من ان يقع منهم في حقه مكيدة او حيلة . ثم انه التفت الى الامير مرة وباقي السادات واشار اليهم بهذه الابيات :

يقول تبع المدعو اليمانـــي	ابا مرة لكـم مني الامانـــي
الا يا قيس روحـوا لا تخافوا	فقد سدتم على اهل الزمـــان
ربيعة انت يا مـرة بدالـــه	كبير القـــوم مـن قاص ودان
واولاده فانت موضع ابوهـــم	وانت اكبرهـم فيهم تعانـــي
ولكن جلـق لا تسكنوهـــا	وكونوا فـي امان مدى الزمان

فلما فرغ تبع من كلامه وشعره ونظامه اجابت بنو قيس امره بالامتثال

وتفرقت جموعهم في البراري والتلال وهم يبكون على ما جرى عليهم وما وصل من الاذى اليهم لانهم كانوا في ارغد عيش واهناه وفي عز وجـاه كلمتهم بين الناس مسموعة ورايتهم فوق هام المجد مرفوعة لا يعرفون الهم والكدر ولا يأخذهم قلق ولا ضجر الى ان اصابتهم البلية وحلت بهم الرزية فبكوا على تفريق بعضهم البعض وتشتتهم في اقطار الارض ومـن غريب الاتفاق المستحق التسطير في الاوراق هو ما جرى للاربعة اخوة الذيـن اشتهروا من قيس بالحمية والنخوة وذلك انه كان لزوجة الامير ربيـع المذكور والد كليب والزير الفارس المشهور اربعة اخوة من الذكور وهـم (جوشن وناجد وجودر والامير منجد الاسد الغضنفر) وكانوا من اجـود الناس قد اتصفوا بالشجاعة وقوة البأس فلما رأوا افعال تبع الشنيعـة وكيف انه قتل صهرهم ربيعة ساءهم ذلك الامر وتوقد قلبهم بلهيب الجمر لكنهم اخفوا الكمد واظهروا الصبر والجلد فحملوا بيوتهم وعيالهم وساقوا غنمهم وجمالهم وجدوا في قطع البراري والآكام حتى وصلوا الى بلاد الشام ونزلوا بقرب صيوان تبع حسان فقال لهم من تكونون من العربان فقال له ناجد اعلم ايها السيد الماجد اننا من خيار العرب اصحاب الحسب والنسب وكان الامير ربيعة متزوجا بأختنا جميلة وكنا في زمانه في نعم جزيلة والآن قد امسينا في ذل وهوان ليس لنا قدر ولا شأن وقد أتينا اليك وجعلنا اعتمادنا بعد الله عليك لعلك ترحمنا وترثي لحالنا وتبلغنا منك غاية آمالنا وتجعلنا لك من جملة الاعوان والعبيد والغلمان فتستقيم امورنا بعد الذل والكدر ونحظى بالشرف الرفيع وبلوغ الوطر فأعجبه كلامهم وبلغهم مرادهم وجعلهم من جملة وزرائه واكابر امرائه وكان يستشيرهم في اكثر الاوقات يفضلهم على الرؤساء والسادات وكانوا يترقبون الفرص ليأخذوا بالثـأر ويزيلوا العار ولما بلغ تبع الغاية دخل الى دمشق ونزل بالسراية وطاعتـه العباد وخضعت له سائر البلاد وشاع ذكره في الاقطار وتحدثت به الملوك الكبار واستمر على هذا الحال ثلاثين سنة تهاديه الاكاسرة وتهابه الملـوك القياصرة وقد بنى قصرا مرتفع البنيان مشيد الاركان وجعل ابوابه مـن الفضة والذهب ورصع حيطانه بالجواهر والدرر فكان من عجائب الزمان لما فيه من التحف الحسان التي تدهش النواظر وتحير العقول والخواطر فاتفق ذات يوم وهو جالس في الديوان وحوله الاكابر والاعيان وهم يتحدثون بذكر نساء العرب اللواتي اشتهرن بالفضل والادب والحسن والجمـال واللطف والكمال فقال احد الوزراء انه لا يوجد في هذا الزمان بنت بين

بنات العربان كاملة من المحاسن والاوصاف البديعة اجمل من ابنة مرة اخي ربيعة واخذ الوزير يطنب في اوصافها وقال وهي مخطوبة لابن عمها الامير كليب ومراده ان يتزوج بها في هذه الايام فهنيئا لمن كانت زوجته وقرينته وحبيبته فلما سمع تبع بذكرها وانها من اجمل بنات عصرها اشتد غرامه بها وتعلق قلبه بحبها وكتب الى ابيها مرة كتابا بالحال يأمره ان يرسل له الجليلة بدون اهمال لان مراده ان يتزوج بها ويكون صهره وبهذه الوسيلة يعلو بين الناس قدره ثم ختم الكتاب بهذا الشعر والنظام وبه يتهـــدده بالانتقام ان لم يمتثل الى هذا الكلام واشار يقول :

يقول التبع الملـك اليمانـــي	ملكت الارض والسبـــع البحار
الا يا غاديـــا منـــي لمــرة	على فرس تشابـه ريـــح ساري
ابا مـرة فارسل لي الجليلـــة	بــــلا اهمال من بين السراري
سمعت بأنهـــا زينـــة مليحة	ويخجل حسنهـا ضوء النهـــار
اريد تكون باكـــر وسط قصري	وتتسلط على كـــل الجـواري
وارسل جزية السبع المواضـي	خزاين فـــي صناديق كبـــار
واحضر يـــا ملك مـرة لعندي	واخضع لـــي بذل وانكساري
وادخل عالجليلـة وسط قصري	واتمتع بها واطفـي لنـــاري
واعطيك البقاع الـــى بعلبـك	وارفع لك مقاما فـــي جواري
وان لم تمتثـــل قولي وامري	تراني جئتكم مثـــل الضواري
وامحي جمعكم في حـد سيفي	وانهب مالكم وانـــال ثـــاري

ثم أمر وزيره نبهان ان يركب في جماعة من الفرسان ويقصد تلـــك القبيلة ويسلم الكتاب الى مرة ويأتيه بالجليلة فامتثل امره وسار وجد في قطع القفار حتى وصل الى تلك الديار فراى القوم في سرور وافراح وشرب مدام وانشراح لانهم كانوا مهتمين في زواج كليب بالجليلة بدر التمام فلما سمع مرة بقدوم وزير تبع خفق قلبه من شدة الخوف والفزع فنهض في الحال واستقبله أحسن استقبال ثم اتى به الى الخيام واحترمه غايـــة الاحترام وامر الخدام ان يأتوه بصفرة الطعام وآنية المدام فامتثلوا امره كما ذكر وبعد ان اكلوا ولذوا وطربوا قال الامير مرة الى الوزير اعلم ايها الوزير الخطير لقد زاد سرورنا الان وتزينت بقدومك الاوطان ثم سأله عن سبب زيارته وما هي غاية حضرته فقال اتيتك بكتاب من تبع ملك الاعارب وبه يطلب ابنتك امراة له وانت تعلم بطش هذا الجبار وفعله فقد قال المثل لا تعاند من اذا قال فعل وانا والله في غاية الخجل وليس لي ارادة بهـذا

العمل لكنني اتيتكم في زي رسول وما على الرسول الا البلاغ المبين ثم اخرج الكتاب وسلمه اياه ففتحه الامير مرة وقراه ولما وقف على حقيقة فحواه انقطعت امعاؤه وضل عقله وتاه لانه ان ابى وامتنع يقتله الملك تبع وان اجابه الى ما طلب يصير معيرة بين قبائل العرب وتشتمه الناس وتزدريه لانه كان انعم بزواج ابنته الى كليب ابن اخيه فانذهل وحار واخذه القلق والافتكار واشتغل قلبه بلهيب النار فاطرق راسه الى الارض واخذ يتأمل في عاقبة هذا العمل فلم يجد سوى الخضوع والامتثال لاوامر تبع في الحال خوفا من العواقب وحلول النوائب فالتفت الى الوزير نبهان وقال له امام الامراء والاعيان ومن حضر في ذلك المكان لقد اجبت الملك الى ما طلب وبلغته من ابنتي غاية الارب لانه ليس بعد الله سوى امره ورضاه لانه الملك الاكبر وبمصاهرته نحظى على الشرف والحظ الاوفر وبعد ثلاثة ايام نكمل جهازها بالتمام فنضعه بالصناديق ونحمله على ظهور الجمال مع باقي الامتعة والاحمال وتركب الجليلة في هودجها وتسير امامها الفرسان وتذهب انت معنا الى عند الملك تبع حسان فانشرح صدر الوزير بهذا الكلام وأيقن ببلوغ المراد والحصول على الخلع والانعام فبات تلك الليلة في أمان وهو مسرور فرحان .

واما الامير مرة فانه استدعى بكليب سرا اليه وقص الخبر عليه وقال اعلم يا ثمرة حياتي ومن هو اعز اولادي ان الضرورة احوجتني الى ذلك خوفا من الوقوع في المهالك وقد اعلمتك بما جرى وتجدد فما رايك ايها البطل الامجد. فلما سمع كليب هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام وقال ارجوك ان تمهل الوزير ثلاثة ايام عن المسير حتى انظر في هذا الامر العسير .

قال الراوي وكان لكليب صديق يتمنى له النجاح والتوفيق يدعى العبد نعمان وكان كثيرا ما يعده بالخير والاحسان فقصده في تلك الليلة. واخبره بما جرى وكان من امر الملك تبع فقال له ابشر بالخير يا نور العين. وعندي ان تجهز مائة صندوق يكون كل واحد منهم بطبقتين ففي الطبقة الواحدة نضع فارسا من ابطال المكافحة والمجالدة وفي الثانية جهاز الجليلة وانت تكون مهرجا لها امام سادات القبيلة وبهذه الوسيلة تتم الحيلة وتنال المراد من رب العباد واعلم لا خفاك انه عند وصولك الى هناك تجد سلسلة من النحاس الاصفر معلقة فوق الباب الاكبر وهي مرصدة من سحر هذا الزمان لهلاك من اراد الضرر للتبع حسان فتقع عليه بالحال وتذيقه الوبال

فخذ لنفسك الحذر واتكل على اله البشر فهو يحفظك ويحميك وينصرك على جميع اعاديك فاذا بلغت الارادة وفزت بالسعادة بنيت مسجدي برسم العبادة وخذ لك هذا السيف الخشب وبه تنال القصد والارب واشار يقول:

قال عمران يا ابـن ربيعـة اتاك الخير وسعدك تـم
روح لقومـك بشرهـم وقـول لعمـك وابن العـم
وبشر المسمـى همـام بـأن الشمل اليوم يلتـم
وقـول السعـد اتـى لقيس واستوفـي ثـارك والـدم
تأخـذك ثـارك مـن التبع وتسقيـه الخمر بكأس السم
هذا السيـف تقلـد فيـه وفي كفـك يا امير يتـم
والبس قموعـة شموطـه تبقـى تضرب فيـه بعـزم
وحـط بعينـك عرق الشعب تبقـى احمر مثـل الـدم
وحـط عروسك في هـودج وقـود بهـا زمـام وزم
وسـوي عرضـك قشمرها احـذر منـه في حقك دم
وان واحـد قلك مـا تكون فاعجل واعمل حالـك صـم
والعب وارقـص واتهـرج واحفظ مـا يخرج من الفـم
عمـك مـرة والفرسـان باكـر لعنـدي تلتـم
وانـا دبـرت اهـل الـرأي من خالـف قولـي ينـدم
وسـير لعنـد بالابطـال قبـل مـا يغضب وينسـم
سلسلـة معمولـة هنـاك بعلـم السحـر مع الطلسـم
تبين كـل اعـداء ساعـة احـذر منهـا لا تعـدم
طيب قلبـك لا تفتـاظ مـن ذا العايـق لا تهتـم
سألت المولـى ينصركـم ويزيـل عنكـم كـل الهـم

فلما فرغ العابد من كلامه وعد كليب ببناء المقام على احسن نظام ثم رجع على الاثر واعلم عمه الخبر وقال له يقتضي الان ان نبادر باتمام هذا الشأن وننتخب ماية من الفرسان ونضعهم في الصناديق على ظهور الجمال مع باقي الجهاز والاموال في صفة امتعة واحمال على عيون الرجال ويكونوا جميعا بالاسلحة الكاملة والعدد الشاملة وتركب الجليلة في هودجها وهي مزينة بالجواهر ويكون في صحبتها جماعة من السراري يدقون امامهـا بالدفوف والمزاهر وانا اجعل نفسي مهرجا لها وقائدا لزمام ناقتها وندخل على تبع بهذه الوسيلة فان تمت عليه الحيلة نلت المرام واخذت بثأر ابـي ومن قتل الملك تبع يقع في قلب قومه الخوف والفزع. فاستصوب الامير

مرة كلام كليب وعلم انه سينال المراد فقال لقد قلت الصواب فافعل ما تريد وكان قد امهل الوزير ثلاثة ايام حتى تمت هذه الامور والاحكام وقد اطلع مرة ابنته الجليلة على ما تقدم ذكره وعلى ما قصد كليب فعله . فلما كان يوم الارتحال انتخب كليب مائة من الابطال وقص على مسامعهم واقعة الحال ثم وضعهم في صناديق الاحمال وحملوهم على ظهور الجمال وكان من جملتهم الامير جساس وجماعة من عظماء الناس وركبت الجليلة في هودجها وركب ايضا الوزير والامير مرة وجماعة من فرسان القبيلة وتقلد كليب بالسيف من تحت الثياب ولبس فروا من جلود الثعالب والذئاب وارخى لنفسه سوالف طوال من اذناب الكداش والبغال وركب على قطعة من قصب وحمل دبوسا من خشب وكان يقود بزمام ناقة الجليلة امام القبيلة فلما رآه الوزير نبهان قال لبعض الفرسان من يكون هذا الانسان فان زيه عجيب وحاله غريب فقالوا هذا مهرج الجليلة بنت مرة واسمه قشمر بن غمرة فزاد عجبه وتبسم وهو لم يعلم بأنه كليب الاسد الغشمشم وكانت السراري تدق امام الجليلة بالمزاهر والدفوف والفرسان تلعب بالرماح والسيوف وما زالوا يقطعون البراري والآكام مدة ثلاثة ايام حتى اقتربوا من مدينة الشام فنزلوا هناك ونصبوا الخيام ورفعوا الرايات والاعلام وارسلوا رجلا من اكابر العمد لكي يعلم تبع بوصولهم الى البلد فسار على الاثر واعلم تبع بذلك الخبر ففرح واستبشر وزال عنه القلق والضجر وكان عنده رمال شاطر فحضر بين يديه فقال له التبع اضرب لي تخت الرمل فجلس وضرب الرمل فراى جميع ما فعلته بنو قيس وقال الصناديق فيها رجال واشار يقول :

قال الفتى الرمال صادق   سقاني الدهر كاسات المرارا
تبعت الرمل مذ كنت طفلا   وقبلته يمين مع يسارا
ولا احد مثلي بالرمال عارف   ولا غيري يعرف كيف سارا
اخط الرمل بأربع امهات   واولد الصغار مع الكبارا
الا يا امير تبع يا ملكنا   يا اعز الرجال يوم غارا
اقلك عن التقادير والجنايب   وتحسب انهم جابوا لك تجارا
جوا يا ملك هم يقتلوك   ويسيبوا القصر بعدك دشارا
صناديق اللي لك حملوها   بها ابطال بالعدد امارا
يريدون قتلك يا ملك عاجل   لم ثار عليك واي ثارا

قال الراوي فلما فرغ من كلامه والتبع يسمع نظامه نادى على العبيد فحضروا مابة عبد وقال لهم روحوا الى العمارة وكل صندوق تلاقوا فيه رجال كسروه فانطلق العبيد الى العمارة وهم سعد وسعيد وبقية المابة عبد هذا في يده عصا والاخر في يده بلطة والثاني في يده دبوس حديد ولما وصلوا الى العمارة ابتدأوا بكسر الصناديق فكسروا الاول والثاني الى العشرة فصاحت بهم يا عبيد السوء لماذا تكسروا صناديقي فقالوا لها العبيد ان الرمال قال ان في هذه الصناديق رجال فقالت لهم اسمعوا حتى افتح لكم اياها لتروا الرجال الذين في الصناديق وتقدمت وفتحت لهم عشرة صناديق فما وجدوا فيها غير جهازها والقماش فقالت ان الرمال كذاب وعادوا يردون الجواب لتبع لهم كلام . ثم يرجع الكلام الى عجوز يقال لها حجلان وكانت رماله وهي التي علمت الرمال فبان لها جميع ما فعلوه بني قيس وتبين لها ان الصناديق طبقتين في السفلى رجال وفي العليا قماش فافتكرت ساعة من الزمان وضربت ثاني رمل فرات بني قيس يقتلون التبع لا محالة فقالت خير لي اخذ الوجه الابيض عند بني قيس فقامت واخذت عصاتها بيدها وسارت الى ان وصلت لعند بني قيس وهم في ارتباك عظيم فقالت اتيت من عند تبع فقالوا لها وما قصدك قالت قصدي كشف الصناديق لان الرمال قال ان فيها رجال ففتحوا لها اول صندوق والثاني فقالت اني ارى الصناديق من الظاهر ذات عمق ومن الداخل بخلاف ذلك وضربت على الطبقة السفلى فلما رأوها عارفة قالوا لها استري على ما ستره الله وفتحوا صندوق واعطوها ثلاث بدلات حرير فقالت لهم من الان وصاعدا اساعدكم على قتل تبع ثم ان العجوز طلعت الى عند تبع والرمال بين يديه وهو يضرب الرمل لان العبيد اخبروا تبع بما شاهدوه وكذلك العجوز اخبرته كما خبروا العبيد فقال تبع يا عجوز الرمال كذاب قالت ان الرمال عمي من اكل البصل والتوم فأمر الملك بضرب عنقه وراحت روحه الى سقر ووادي الاحمر وتقدمت العجوز الى الملك واشارت تصف حسن الجليلة وما اعطاها الله من الحسن والجمال :

تقول العجوز التي شاهدت مليحة تزيح العنا وصدود
يا امير تبع يهنيك فيها السعد واقبل الخير لك والسعود
اتوك بنو قيس اهل السماح وجابوا لك الخيل ثم النقود
وجابوا بنو قيس اهل السماح وجابوا الك الخيل ثم النقود
وجابوا الجليلة لشخص جليلة بخدين حمر وعينين سود

وقامة طويلـة كعود القنــا فوق الكتاف ترخي الجعـود
بشعر طويــل ورمش كحيـل بلا جر ميــل تصيد الاســود
حواجب كالقـوس ترمي الهموم وذات خزام الذهب على النهـود
وذات شفاف رقـاق نظـاف الفاظها حلوة تزيــل النكـود
ولها وجــه اكيد بليلة القـدر ووجنـات حمر كما الـورود
وجسم رقيـق ورقيق وحيـق وسنان لولو سبت الــورود
لها عنــق كعنـق الغـزال وطوق الذهب يوقـد وقـود
كتاف كالعـاج مثـل الزجاج والنقش مـواج فـوق الزنـود
وكف اطـرى مــن الياسمين مـن حواهــا ينال السعـود
وصدر كاللـوح خلقــة الالـه وقد زين الصدر جوز النهـود
واعطاف وأرداف مثـل العجين خلـق الالــه مهيمـن ودود
امـا الحجـول تزيل العقــول حب الطـرف يطفي الصـدود
امـا القلائـل سناسل ذهـوب من الراس مكعوب مثل البنـود
وملبوسها مليــح حرير مقصب مطيب بمسك وزهر وعـود
وان شافهـــا رجل عابد فقيه غدا العقـــل منه شارد شرود
قد زينوا بني قيس لـك عرسا تجلي لاجلــك كل هم وكـود
للملـك حقـا قـد احضروا مليحة حلالها يغني عـن النقـود
فارسل وراهـا وخلي المحـال واسمع كلامـي واجلي الصـدود
وادخـل على بنت مـرة وكـن لطيفا يقطف ثمـار النهــود

قال الراوي فلما فرغت العجوز من كلامها والملك تبع يسمع نظامهـا فراح عقله من وصف العجوز ونادى على الوزير يأمره ان يحضر الجليلـة بالتبجيل والتكريم ومن خلفها السراري بموكب عظيم فذهب الوزير واحضر الجليلة لتبع وكان جالسا على كرسي المملكة وعلى راسه تاج من الذهب الفاخر مرصعا بأنواع الجواهر فسلمت عليه فرد السلام وآنسها بالحديث والكلام وقال لها اهلا وسهلا بالسيدة الكريمة والدرة التي لا يقدر لهـا قيمة ثم اجلسها بجانبه وترحب بها غاية الترحيب وقد أبهر من فـرط جمالها وعذوبة الفاظها وفصاحة مقالاتها لانها كانت متصفة بالادب ومـن اجمل نساء العرب فاخذ يسألها عن اهلها وعشيرتها فقالت له بكلام الدلال اعلم ايها الملك المفضل ان اتصالي بجانبك وتشريفي ببابك جعل لقبيلتنـا اسما كبيرا وذكرا بين الناس شهيرا كيف لا وانت ملك هذا الزمان اللــه يحفظك لنا ويبقيك وينصرك على جميع حسادك واعاديك فان كنت تعظم

شاني وترفع مرتبتي على اقراني لا تترك ابي واعمامي وسادات اهلي واقوامي بعيدين عن فضلك واحسانك لانهم قد صاروا من جملة اتباعك واعوانـــك فأحب ان تأمر لهم بمكان ينزلون فيه الان وتأمر بصناديق جهازي فأحب الاحمال ان تحضر الى هنا في الحال لانها مملوءة بالتحف والجواهـــر والقماش النفيس الفاخر فأمر تبع وزيره نبهان ان يذهب في جماعة من الاعيان ويعد قصرا من القصور الجميلة الى الامير مرة ابو الجليلة ومن معه من بني عمه وان تنزل بقية الفرسان بمكان اخر ويقدمون لهم الطعـــام والشراب وما يلزل من الثياب فأجاب الوزير بالسمع والطاعة وفعل كما أمره مولاه من تلك الساعة وبعد ان نفذ الوزير الامر وضع الصناديق داخل القصر التفت الملك تبع الى مرة وقال له يا عمي ما بقي من بعدي الا انت فـــي مقامي فان غبت تكون انت حاكم مكاني ثم انه قربه اليه واخـــذ يترحب بالجليلة ويقول :

يقول تبـــع اليمني الكبـــار	ابا قيس زال الهـــم عنـــي
الا يـــا مرحبا يا امير مـــرة	انا منكم وانتوا اليوم منـــي
ترى لـــولا الجليلة لي تعاقب	وجابت لي الحسب والنسب مني
فما علمتـــم اننا يمنيا وقيسا	مـــن جديـــن اخوين بطنـــي
بقينـــا اولاد عـــم يا مسمـــي	والذي راح راح بـــلا توانـــي
فلا تعتب علـــي بقتل اخيـــك	مـــا قد صار بالعلم منـــي

قال الراوي فلما فرغ تبع من كلامه والحاضرين يسمعون نظامه اخذوا الكاس والطاس وقال للجماعة حلت البركة فيكم فقعدت بنو مرة تشرب معه المدام وشرب الملك تبع حتى سكر وغنت البنات ورقصت وقال تبع للجليلة يا سيدة الملاح وكوكب الصباح قد اجرينا المطلوب طبق المرغوب فهل لك غرض اخر حتى نقضيه ونفعل ما ترغبيه وتشتهيه وكان مرادها ان تستدعي كليب الى عندها وقد سمعت صوته وهو يصيح من جوانب القصر لانه كان راكب على فرسه القصب وبيده دبوس من خشب وكان يرقص فـــي البستان وينتقل من مكان الى مكان فقالت نعم ايها السيد الماجد بقي لي غرض واحد وهو ان لي نديم اسمه قشمر لا يوجد مثله بين البشر حلـــو الصفات سريع الحركات يضحك الاحجار بأفعاله ويزيل الغمـــوم بغرائب اعماله وقد احضرته هذه المرة في خدمتي ليسليني عند حزني وشدتي فان حسن لديك فارسل من يحضره اليك ويلعب بين يديـــك فيزداد سرورك وانشراحك وتزول احزانك واتراحك فضحك من كلامها واجابها الى مراميها

وامر احد الخدام بادخاله ليرى طرفا من اعماله وعند وصوله الى بـــاب الايوان نظر السلسلة التي نظرها العابد نعمان فامتنع عن الدخول واخـذ يتكلم بكلام مجهول ويقول ما هذه الحيلة التي اراها وانا خايف من شرها فقال ادخل وما عليك من بأس فما هي الا سلسلة من نحاس فأبى وامتنع وهو يظهر على نفسه الخوف والفزع ولما طال المطال التفتت الجليلة الى تبع في الحال وقالت له يدهش بأفعاله العقول فانه مع كثرة هزله وخفة عقله جميل الصورة فصيح الخطاب سريع الكلام في الجواب فقالت له صدقت فيما نطقت فانني لم ار رجلا مثله بين الانام في الزلاقة وفصاحة الكلام وان بقي عندك عشرة ايام يقوم بمنادمتك حق المقام ويدعك مشروح الخاطر على طول الزمان ثم قال قشمر وهو كليب للتبع حسان ان كنت تريد ان تطرب الان فأمر سيدتي الجليلة ان تغنيك بأبيات من الشعر فان صوتها مليـــح ولفظها فصيح فقال لها هل تحسنين الغناء يا سيدة النساء فقالت اي وابوك فان كنت تريد مني اغنيك وأطربك وأسليك فأمر قشمر ان يقفل الباب لئلا يسمعني احد من الخدام والحجاب فاستصوب تبع كلامها وامر قشمر ان يقفل باب المخدع فقفله وعاد بالعجل وقد ايقن ببلوغ الامل وانشدت الجليلة تقول من فؤاد متبول :

لقد قالت الجليلة بنت مــــرة	شربت الخمـــر ما بين الامـــارة
شربنا الخمر في كاسات جوهر	فزال العقل واصبحنا سكـــارة
بحضرة تبع الملـــك المسمـــى	بحسان اذا مـــا شن غـــارة
وقد امسيت في قبضة يديـــه	ومن حبه شعـــل بقلبي نـــاره
الا يـــا حارس البستان صنـــه	وان فرطت فيـــه الطير طـــار

قال الراوي فلما انتهت الجليلة من هذا الشعر والنظام زاد بالتبـــع الوجد والغرام وسكر من غير مدام وقال مثلك فلتكن النساء فقد زاد سرورنا في هذا المساء وكلما رآه كليب قد زاد في الطرب اخذ يرقص امامه ويلعب بالسيف الخشب فقال له تبع عيب عليك يا قشمر ان ترقص في هذا السيف امامي فقالت الجليلة بحياتي عليك ان تبلغه الارب وتعطيه ما طلب فانك ترى منه العجب فأمره ان يدخل قاعة السلاح فيأخذ السيف ويرجـــع بالعجل فأجاب كليب وامتثل وكانت الجليلة اومت اليه ان يسرع في العمل وعند دخوله الى ذلك المخدع وجد سلاح الملك تبع فلبس الدرع وتقلـــد بالسيف ووضع الخوذة على راسه وخرج بالعجل كأنه قلة من القلل او قطعة فصلت عن جبل وبدأ بفتح صناديق الاحمال واخراج الفرسان بكلام

الدلال اعلم ان قشمر من اخوف البشر فان حسن لديك ولم يصعب عليك فامر الخدام والحجاب برفع السلسلة عن الباب فرفعوها واتوا بقشمر اليه فلما صار بين يديه وسلم عليه دعا له بطول العمر والبقاء ودوام العـــز والارتقاء واخذ كليب يمزح امامه ويلعب بسيفه الخشب قدامه وهو فـي تلك الثياب التي ذكرناها والصفة المضحكة التي وصفناها فكان تارة يبحلق بعينيه ويرقص على الارض بيديه ورجليه وتارة يقول ابن الفرسان والفحول وابن ابو عطبول واحيانا يرقص ويضحك بدون سبب وهو راكب الفرس القصب ويسوقها بذلك الدبوس الخشب فكان من أعجب العجب فاندهش تبع من اعماله واستغرب من احواله واقواله فقال للجليلة والله يا كاملة المعاني وشريكة عمري وزماني لقد اصبت في منادمة هذا البهلول الـــذي والابطال في ساحة الدار ووقفوا له بالانتظار فسل الحسام من غمده بيده ثم دخل على الملك وقد احمرت عيناه وتذكر اباه فصال وجال ولعب بالسيف كما تلعب الابطال في ساحة القتال وهجم عليه فعرفه حينئذ الملك تبـــع فانقطع قلبه من الخوف وأيقن بالهلاك فقال له بالله عليك يا سيد الشجعان وفارس الميدان ان تعفو عني وتسمح عما فرط مني فقال لا بد من قتلـك كما قتلت ابي وأكون قد اخذت ثأري وبلغت مرامي فقال تبع اذا كان لا بد لك من هذا الشأن فامهلني ساعة من الزمان حتى افيدك عن جميع الامور والاحوال التي تحدث الى اخر الاجيال فقد اتضح لي الحال ووقعت فـــي شرك العقال ثم انشد يقول :

(الملحمة الكبرى للتبع حسان)

يقول التبــع الملك اليمانـــي ... لهيب النار تشعل في فؤادي
امير كليب يا فارس ربيعــة ... ويا حامي النسا يوم الطراد
اريد اليوم أن اعلمك شيئــا ... لتعرف حـال اخبار العبـاد
فموسى كان في الدنيا نبيـا ... له التوراة اعطت للرشـــاد
وداوود النبي قـد جاء بعده ... يبشر بالزبور اهل الفســاد
وعيسى ابن مريـم جاء ايضا ... بانجيل الخلاص لكـي ينادي
نبي لم يكن في الناس مثله ... لان اللـــه اختـــاره يفادي
فكم ميت بكلمتـــه اقامـــه ... ومسقوم شفاه مـن الوساد
وعندي قد تبين بالملاحـــم ... بأنك قاتلي دون العبـــادي

وبعده شاعر تنزل عليكم   وتفتن بين قيس في البلاد
وانت برمح جساس ستطعن   وعبدي يذبحك بين الجماد
وتكتب في دمائك على البلاطة   لمن بعدك لتشتيت الاعادي
ويأتي الزير ابو ليلى المهلهل   فيصلي الحرب في كل البلاد
ويقهر كل جبار عنيد   بضرب السيف في يوم الجلاد
وتاخذ الجليلة لك قرينة   وتحظى بالمسرة والمراد
ويظهر لك غلام بعد موتك   يسمى الجرو قهار الاعادي
يقتل على يده جساس خاله   واما الزير تقتله الاعادي
وسيف ذو يزن بعدك سيظهر   وتصحبه السعادة في العباد
ويبقى ملكه سبعون عاما   وبعد ذلك يطوى في الوهاد
ويظهر له ولد يدعى بدمر   شديد البأس مرفوع العماد
فيملك في بلاد الشام بعده   يجيب الماء من اقصى البلاد
وبعده يظهر المدعو بعنتر   يهبن الضد في يوم الطراد
وبعده يظهر الهادي محمد   يقيم الدين ما بين العباد
وأصحابه معه عشرة كوامل   كرام الناس سادات البلاد
ابو بكر وسعد مع سعيد   وطلحة والزبير ابن الجياد
وعثمان مع عمر وعلي   وعامر مع حسين أهل الرشاد
يموت الهاشمي ويصير خليفة   على الاحكام بعده بالعباد
وبعده بنو أميه سوف تحكم   وأولهم معاوية ابن وهاد
ومن بعده بني العباس تحكم   سنين كثيرة بين العباد
وبعده الخوارج سوف تظهر   يثيروا الفواحش والعناد
يقيموا الشر في كل الاراضي   ويملوا الارض طرا بالفساد
وتظهر في بلاد السر وعصبة   فيقصد جيشا غرب البلاد
هلال وعامر من آل قيس   يزيدوا حرب حمير مع اياد
حسن اميرهم فخر البرايا   بعده دياب قهار الاعادي
وابو زيد ابن عمه ليث اروع   شديد البأس في يوم الطراد
يطوفون البلاد فيملكوها   ويسبون العدا اهل العناد
ويمحون العجم من كل طاغ   بأرماح واسياف حداد
وقبرص والجزائر يملكوها   وبدريس الخزاعي والاعادي
شبيب التبعي بالشام يقتل   وتترك جثته فوق الجماد
وسركيس بن نازب سوف يقتل   بسيف ذياب قهار الاعادي
كذا فرمند في مصر العدية   ستخرب دورها بين البلاد
وبعده يظهر الاشطان ظالم   خبيث الاصل من قوم شداد

بنو ايوب تظهر بعد منـــه
يقيمون الدين من بعد الفساد

ويظهر ابن عثمان المساعـــد
بأرض الشرق ويحكم بالعباد

ملوك الارض تخشى من لقاهم
لان جيوشهم مثل الجـــراد

عداد ملوكهـم عشرة وعشرة
وتسعة بعدهـــم دون ازدياد

ويظهر تمرلنـــك من الاعاجم
وجنكيز خان مــــن الاعادي

ويظهر بعـــده ملكا قويــــا
يثير الحرب في كـــل البلاد

طويل الجسم مغضوب عليه
له اسمين من طاهر وبــــادي

يقيم السيف في الاقطار عمدا
ويجري الدم في كل البوادي

ويظهر فارسا يدعـــى قطيعة
فعشر سنين يظلم بالعبــــاد

ويظهر بعده الدجال حقـــــا
فتتبعه الورى اهل الفســـاد

بطرف الارض من شرق وغرب
ويفعل معجزات فـــي البـــلاد

وبعده دابـــة تظهر سريعـــا
فتفعل معجزات فـــي البلاد

ونار من عدن تظهر وتسطــع
فتشكو الناس من هول النكاد

وبعده الشمس تظهر من مغيب
وتزداد الخلائـــق في الفساد

ويأجوج ومأجـــوج جميعـــا
تحيط رجالهم كـــل البلاد

فلا نهر الفرات لهـــم يجـــري
ولا سيحون والدجلة المداد

وتغشى الارض موتا يا كليبا
وجـــوع وقتل في كل العباد

ونـــيران تعم الارض طــــرا
على اعلى الجبال وكل وادي

وبعده يغلق بـــــاب المراحم
وبـــاب الشر يفتح بارتصـــاد

فلا يصعد ولا يأتي جـــواب
فـــذاك الوقت يحترق العباد

ونيران ستظهر مـــن جهنـــم
وينفخ ريح من اقصى البلاد

يموت الخلق ميه ليس يبقى
سوى الرحمن خلاق العبـــاد

وبعده يظهر الديان حقـــــا
الـــه العرش ديان العبــــاد

فعندي الجفر قد اخبر مؤكد
بما اخبرتكم دون ازديـــــاد

واسمع يا امير كليب منـــي
حقائق قصتي وافهـــم مرادي

وما علمت عن حالي وضعفي
اجرني يا ملك واطلق قيادي

واعلم يا امير اني عتيقـــك
مدى عمري الى يوم المعـــاد

فلما فرغ الملك تبع من هذه الملحمة وسمع كليب ما فيها من الاخبار المتقدمة والمتأخرة تعجب غاية العجب وقال لست اعفو عن قطع راســك واخماد انفاسك لانك افتريت وظلمت ثم اجابه بهذا القصيد على سبيـــل التهكم والتهديد :

يقول كليب قاهر الاعـــادي
كلام اشد مــن ضرب الهناد

انا قد صرت هذا اليوم حاكم
اتاني السعد مع نيل المـــراد

ايا تبع الينا جيت عاجـــل
قتلت ابـــي وخربت البلاد

فما ابقيت قيمة للامـــارا ... وقد البستهم ثـوب الحداد
هتكت الارض يا تبع بفعلـك ... وصيرت الانـــام الك اعادي
جعلت رجالنا تشبه نسانـا ... واهلكت الامـارا في البـلاد
فوالله ثـم والله ثـم والله ... اله خالق كـل البـــوادي
فلست براجع عن قطع راسك ... ولو ملكتني كل البـــوادي

قال الراوي فلما فرغ الامير كليب من كلامه وفهم تبع فحوى قصده ومرامه قال بالله عليك ايها السيد المحترم ان تعفو عني وتجعلني من الخدم فقال كليب لا بد من قطع راسك يا مهان ولكن اسألك كيف قتلت ابي غدرا او بالميدان فقال تبع اذا كان لا بد لك من ذلك يا فارس المعارك فامهلني ساعة حتى اخبرك عن سبب قتل ابيك واتودع من هذه الدنيا قليلا ثم انه ابدى حزنا وعويلا واشار يقول من فؤاد متبول وعمر السامعين يطول :

قال الملـك تبـــع حســـان ... ظلمني دهري دون باقي الناس
يا ابن ربيعة يـا مخـــزوم ... انت امـير شديد البـأس
طويل الباع بيـــوم نـزاع ... عفيف شجاع ثقيـــل الراس
تسألني عـن قتل ابيـــك ... فكـــل بناية لهـــا اساس
فلما جيت لارض الشـام ... اتـــى للقانا كـل النـاس
اتانـي كـل اكابـــر قيس ... وكل امير ايـــدي بـــاس
الا ابوك فقـــد خالـــف ... ولـــم يفعل كباقـي الناس
فراح الغيـظ بوسط القلب ... امـرت بشنقـــه للحـراس
وهذا بأمـــر الله مكتـوب ... فـوق جبينـه بأعلى الراس
وانـــا بقيت بهـذا اليـوم ... وحيد فريـــد بـــلا ايناس
اريـــد العفو عمـــا جنيت ... بحيات عمـك مـــع جساس
انـــي كنت زعيـم القـوم ... وحكمـي نافـذ بين النـاس
فلما اتانـــي وعـد اللـــه ... بطـــل العظـم وظني خاس
دهتني الجليلة بالحيلـــة ... وغابت عنـــي كـل الناس
وهذا امـــر اللـــه محتوم ... وامره نافـذ فـوق النـاس

قال الراوي فلما فرغ تبع من هذا الشعر والنظام قال له كليب لا بد من قتلك بحد الحسام حتى ترتاح الناس من شرك وتأمن عاقبة غدرك . ثم ضربه ضربة الحسام على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الارض قتيلا وبدمه جديلا فلما راته الجليلة قد زادت بها الافراح واعتنقت ابـن عمها وقبلته وقالت مثلك تكون الفرسان يا ليث الميدان فشكرهـــا كليب وهناها على سلامتها وزاد في اعزازها واكرامها ثم خرج من المخدع واعلم

الفرسان بقتل الملك وقال لهم بلغنا المراد فكونوا على حذر واستعداد لامتلاك البلاد فقالوا نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك ثم وضع راس الملك على راس السنان وخرج بالابطال والفرسان وطافوا بشوارع البلد وضربوا من وجدوه بالمهند وهم يقولون هذا راس ملككم حسان فقد اعدمناه وقتلناه وارحنا الناس من شره وبلاه فمن عصى اهلكناه ومن اطاع ابقيناه في قيد الحياة وله منا الامان من طول الزمان . قال الراوي فكان اكثر اهل الشام تكره التبع لظلمه وجوره وتتمنى هلاكه لشره فاجتمعت العساكر والاعيان وطلبوا من كليب الامان وانهم يكونوا له من جملة الرعايا والغلمان على طول الزمان فاجابهم كليب الى ذلك الطلب ورفع عنهم السيف الاحدب ووعدهم بالجميل والاحسان وسمح لهم بخراج عشر سنوات فدعوا له بطول العمر ودوام العز والنصر ثم اجتمعت بنو مرة واكابر العشائر واعيان الشام وقواد العساكر وألبسوه تاجا مرصعا بالجواهر ثم اجلسوه على كرسي المملكة وجلس بقربه وزير الميمنة وهو نبهان وزير التبع حسان ووقف امامه الحجاب والامراء والنواب فحكم بين الناس بالجود والكرم ومنصفا المظلوم ممن ظلم وفي الليلة الثانية اجتمعت سادات القبيلة وزفوا اليه ابنة عمه الجليلة وقد كنا ذكرنا في اول السيرة أوصاف هذه السيدة الخطيرة وما احتوت من الحسن والجمال والفضل والكمال فتمانقا عناق الاحباب وزال عنهما الغم والاكتئاب وباتا في حظ وانشراح الى وقت الصباح وفي اليوم الثالث وردت اليه المدائح والتهاني واشتهر ذكره في البلدان وهابته ملوك الزمان . قال الراوي :

وكانت الجليلة قد طلبت من كليب ان يبني لها قصرا من اجمل القصور ينشيء فيها بستانا يحتوي جميع انواع الزهور فأجابها الى ذلك ووعدها ببناء قصر لا مثيل له في جميع المماليك ثم انه نزل الى الديوان وجمع الوزراء والاعيان واعلمهم بذلك الشأن فقال له الوزير نبهان اعلم يا ملك الزمان انه لا يوجد في هذه الايام من يقدر ان يبني لك قصرا طبق المرام الا المعمر المختص برواق ملك مصر لانه ماهر ببناء القصور الحسان وهو الذي عمر قصر تبع حسان فأرسل كليب واستدعاه اليه فلما قبل الارض بين يديه وسلم عليه فقال له كليب اريد منك ان تبني لي قصرا من القصور الحسان لا يوجد مثله في سائر المدن والبلدان ويكون له جنينة جميلة المنظر تحتوي على جميع الاشجار والخضر فان اتقنت الصنعة طبق المطلوب نلت المقصود والمطلوب فأجابه بالسمع والطاعة وباشر في بناء القصر من تلك

الساعة . قال الراوي ولما اشتهر قتل تبع في اليمن واتصل الخبر الى صنعاء وعدن هاجت الرجال وكثر القيل والقال وكان للملك تبع ابن عم من الامراء المشاهير يقال له عمران القصير وكان شديد البأس قوي المراس فلما بلغته تلك الاخبار صمم على غزو بني قيس بعسكر جرار فجمع العساكر والجنود وفرق الرايات والبنود وركب في مئة الف مقاتل وجد في قطع المراحل قاصدا بلاد الشام بكل سرعة واهتمام ولما بلغ كليب هذه الاخبار استعد للحرب والقتال وخرج للقائه بالفرسان والابطال ولما التقى الجيشان امر كليب ان تتقدم الفوارس الى ساحة الميدان واخذ ينشطهم في الكلام على قتال الاخصام فهاجت الشجعان وتبادرت الاقران في الضرب والطعان وكان الامير كليب في اول العسكر كأنه الاسد الغضنفر او الليث على رأسه البيارق والسناجق ثم التقت الرجال بالرجـــال واشتعلت بين الفريقين نيران الحرب والقتال وعظمت الاهوال فلله در الامير كليب بطل الابطال وما فعل ذلك اليوم من الفعال فانه هجم هجمة الاسود وانطبق على العساكر والجنود بقلب اقوى من الحجر الجلمود وبادر فرسان الكفاح وخطف المهج والارواح وما زال الدم يبذل والرجال تقتل ونار الحرب تشعل الى ان ولى النهار واقبل الليل بالاعتكار فافترقت العساكر عن بعضها البعض وباتوا في تلك الارض وعند الصباح رجعوا الى الحرب والكفاح فبرز الامير عمران الى ساحة الميدان وصال وجال وطلب مبارزة الابطال فأراد كليب ان يبرز اليه فمانعه حجابه وقالوا ايها الملك ان فينا ابطالا وفرسانا تستطيع ان تحاربه فبرز اليه فارس من الصناديد يقال له ميمون بن رشيد فالتقاه الامير عمران بقلب اقوى من الصوان ولم تكن الا ساعة من الزمان حتى استظفر عمران وطعن ميمون بالرمح فوقع قتيل وفي دمه جديل فأخذ سلبه وحصانه ثم قوم سنانة وتقدم الى معركة الحرب وقال اين فرسان الطعن والضرب اليوم تبان الفرسان وتعرف اليمينية والقيسية فبرز اليه اخر فأذاقه الموت الاحمر وما زالت تبرز اليه الرجال وهو يجندلها على بساط الرمال حتى قتل سبعة من الابطال وكانوا من اكابر السادات الذين اشتهروا بالحروب والغارات واستمر القتال على هذا المنوال مدة تسعة ايام وهم في بـــراز واقتحام وفي اليوم العاشر برز الامير مرة لقتال عمران ولما صار في الميدان تقنطر عن ظهر الحصان فأدركه ابنه همام وجاء به الى الخيام فعند ذلك نزل الى عمران الامير جساس وصدمه بقوة قلب وشدة بأس غير انه لم ينجح في قتاله ورجع في المساء عن حربه ونزاله فوقعت هيبة عمران في قلوب

الفرسان والشجعان فاستعظم كليب ذلك الامر واشتعل قلبه بالجمر وقال
ما لزيد الا عمرو فاذا كان الصباح بارزته في معركة الكفاح لانه طغى وتجبر
وقتل منا كل اسد غضنفر وبات تلك الليلة وهو في غم شديد وقلق ما عليه
من مزيد فما اقبل الصباح حتى ركب كلب الحصان وبرز لساحة الميدان
لقتال الامير عمران الذي برز في ذلك اليوم وهو ينادي اين الابطال ايـــن
الصناديد تبرز الى كليب المحتال قتل تبع بالغدر والاحتيال فما أتم كلامه
حتى صار الامير كليب قدامه وصدمه صدمة منكرة اشد من صدمـــات
عنترة فقال له عمران من تكون من الفرسان فقال له اعلم ايها التيس انني
الملك على بني قيس سترى ضربا يذهل ابصار الفرسان الصناديد فقال انت
يا مسخر النسوان واحقر من كل ذليل مهان فلو كنت من الفرسان لـما
غدرت بتبع بالحيلة مع ابن عمك فقال كليب اما علمت يا قرنان ان الرجال
عند اغراضها نسوان واني ما قتلت الملك تبع الا لغدره وقلة حياه وكثرة
شره فانه قتل والدي وهذا الذي سبب ذلك واليوم سألحقك به واسقيك
كاس المهالك فلما سمع عمران من كليب هذا الكلام واشتد بينهم الخصام
فكانا تارة يتقدمان وتارة يتأخران كأنهما اسدان درغامان فأحدقت اليهمـا
الابصار من اليمين واليسار واستمر على هذا الحال الى قرب الـــزوال
فتعجب عمران من ثبات كليب امامه لانه كان يظن انه لا يوجد في الدنيا
من يقدر ان يقف قدامه فعند ذلك قاربه وفاجاه وطعنه بالرمح قاصـــدا
هلاكه وفناه فخلى كليب عن الطعنة فراحت خايبة بعد ما كانت صايبة ثم
هجم كليب وقال خذها يا عمران من فارس الميدان وليث الحرب والطعان
وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الارض قطعتين
وحان عليه غراب البين وبعد ذلك حملت على بعضها العساكـــر وتقاتلت
بالسيوف والحناجر فكثر القتل والجراح وجرى الـــدم وساح وزهقت
النفوس والارواح من ضرب السيوف وطعن الرماح وكان بعد ان قتل الامير
عمران تضعضعت من عساكر اليمن الاركان فولوا الادبار واركنوا الى الهرب
والفرار فتبعهم كليب بالعساكر وقتل منهم اكثر من عشرة الاف نفر وغنم
غنائم عظيمة لها قدر وقيمة وما زال يتابع آثارهم حتى دخل ديارهـــم
فخرجت اليه اكابر البلاط طالبين العفو والامان فأجابهم كليب الى ذلـــك
الشأن وارتد راجعا الى الشام بعد ان رتب عليهم خراجا يدفعونه في كل
عام فدخل القصر بالعز والنصر فاجتمع بابنة عمه الجليلة وباقـــي سادات
القبيلة وطاب له الوقت وزال عنه المقت وبعد ذلك بعشرة شهور تم بناء ذلك

القصر المذكور فكان من عجائب الزمان وغرائب الاوان لانه كان كثير الاتقان ولاسيما البستان فانه كان كفردوس الجنان فيه من جميع الاشجار والفواكه والاثمار والمياه الغزيرة والزهور الكثيرة ففرح كليب فيه وانعم على بانيه وفرشه بالفراش الفاخر الذي يبهر النواظر ويحير العقول والخواطر وجعل ابوابه وشبابيكه من ذهب ورصعها بالجوهر المنتخب ثم نقل ابنة عمه الجليلة اليه وكانت قد ولدت له سبع بنات مثل البدور الطالعات فربتهم بالدلال والعز والاقبال فاتفق ذات يوم من الايام ان مرة زار ابن اخيه كليب في جماعة من بني الاعمام وبعد ان دار بينهم الكلام قال مرة يا ابن اخي كثرت عليك الرجال والاغنام لسبب كثرة المواشي والازدحام فمرادي ارحل عنك بانعامي ورجالي وباقي أموالي ولا شك باننا في هذا الرحيل والانتقال تتحسن بنا الاحوال ونحصل على راحة البال فقال كليب افعل يا عمي ما تحب وانزل في أي مكان تريد من قرب الديار فان البلاد بلادنا ونحن ملوك الاقطار . قال الراوي فرحل مرة بقومه ورجاله ونوقه وجماله ونزل في واد كثير النبات بعيد مسافة تسع ساعات وكان مرة قد شاخ وكبر في العمر فأقام الامير جساس على بني بكر فكان يحسن اليهم ويحكم بالانصاف عليهم فشاع ذكره واشتهر امره فكانت تقصده الشعراء والفرسان وهو يكرمهم ويخلع عليهم الخلع الحسان هذا ولم تكن الا سنة من الزمان حتى صار يحكم على مئة وعشرين الف عنان. هذا ما كان من امر جساس واما كليب الفارس الدعاس فانه كان في سنوح الفرص يخرج الى الصيد والقنص وكان على هذا الحال وقد تعود لانه لم يخف قط سطوة احد وكان له عدة اخوة كل منهم مشهور بالمروءة والنخوة وكان من جملتهم المهلهل الملقب بالزير وكان جميل الصورة كانه البدر وهو صاحب هذه السيرة والوقائع المشهورة وكان في تلك الايام ابن عشرة أعوام وكان في الشجاعة كسبع الغاب لا يخاف من احد ولا يهاب فصيح الكلام منعكفا على شرب المدام وسماع الاصوات والانغام ينشد الاشعار البديعة ويأتي بالمعاني النفيسة الرفيعة وكان كليب لحبه اباه لا يتعرضه بأمر من الامور بل يقابله بالفرح والسرور وكان الزير يتباهى بشجاعته امام اخيه وانه لا يوجد في الفرسان من يضاهيه فقال له كليب في بعض الايام اراك يا اخي مشتغلا في الملاهي وشرب المدام فقلبك خالي من الهموم والاحزان كانك لا تسأل عن تقلبات الزمان فمن الواجب ان تحسب حساب العواقب لان الدهر دولاب سريع الانقلاب اذا ضحكك يوما ابكاك سنة وليس له على احد جميل ولا حسنة

فقال المهلهل ما دمت انا في الوجود فانا بخير ولا احسب حساب للغير ولكن ان جار عليك الزمان واحاطت بك الحساد والخوان فانا ارد عنك الاثقال واجندل امامك الابطال انا اسد الغاب فارس الكتائب والمواكب انا قهار الاعادي اذا نادى المنادي فتبسم كليب من كلامه وتركه مشتغلا بشرب مدامه ورجع الى الديوان وقد راق له الزمان .

قال الراوي وقد اتفق بعد ذلك بأيام ان اولاد مرة اجتمعوا مع بعضهم في الخيام وضربوا تختا من الرمل ليروا ما يحل بهم وما يجري عليهم وما يصيبهم فبان لهم ان الامير جساس لا بد ان يقتل الامير كليب ويظهر الزير ويأخذ ثاره بدون ريب ويقتل منهم كل امير وجبار بعد وقائع تستحق الاعتبار فاعتراهم القلق والكدر واجمع رايهم على ان يقتلوا الزير قبل ان يكبر وكان من جملتهم الامير سلطان ابن مرة فانشدهم يقول :

على ما قال سلطان بن مرة	مبيد الضد في يوم النزال
تبين عندنا جساس يقتل	كليب بن ربيعة ولا يبالي
ويأتي الزير بعده يا أمارة	يشتت شملنا بين الجبال
ويمحي ذكرنا من كل ارض	ويفنينا ويسبي العيال
هلموا نقتله ونبيد اسمه	ونسلم من تصاريف الليالي
فيلزم ان تروح الى الجليلة	ونعلمها على ما قد بدا لي
فهذه اختنا ليست غريبة	فتسعفنا على نيل الآمال
جليلة عارفة في كل فن	وتعرف بالزيارج والرمال
فقوموا كلنا نذهب اليها	ونقضي شغلنا قبل الوبال

فلما انتهى سلطان من هذا الشعر والنظام وسمعه الامير جساس ومن حضر من ابناء مرة الكرام استحسنه جميع القوم وركبوا ذلك اليوم وخرجوا من القبيلة قاصدين اختهم الجليلة وكانوا ثلاثا وأربعين ولدا ذكرا كل منهم اسد غضنفر ولما وصلوا اليها وسلموا عليها فتلقتهم بالترحاب والاكرام واقاموا عندها ثلاثة ايام ثم قالوا لها عن فرد لسان قد ظهر لنا في الرمل بأنه سوف يظهر للزير شأن وأي شأن فيقهر الابطال والشجعان وتهابه ملوك الزمان ويعاملها بالجور والسوء وتنحط منزلتنا بين ملوك العرب فاتفقنا على قتله قبل ان يكبر واتينا لنعلمك الخبر فما رايك في هذا الامر المنكر فقالت اذا قتلتموه فينكشف الامر ويأخذ كليب بثاره منكم فيزداد الشر والاحسن ان اجعل كليب يلقيه في المهالك ثم انشدت تقول :

مقالات الجليلة بنت مـــرة
اخـوه كليب خلفه مثل غول

تريدوا قتل ابو ليلى المهلهل
تعالوا اخوتـي اصغوا لقولي

وست واربعون بنـــو ابيه
يجوكم راكبين علـــى الخيول

وتركب خلفهم كـل الفوارس
فوارس تلتقـي مثـل الفحول

ويبقى كليب يقتلـــه بيـــد
ويجعله طريحـا على السهول

فلما فرغت الجليلة من شعرها ونظامها شكروها واخواتها على حسن اهتمامها وركبوا ظهور خيولهم وراحوا في حال سبيلهم فصبرت الجليلة الى وقت العصر حتى حضر كليب الى القصر وكانت قد شقت جميع مـــا عليها من الثياب واظهرت الغم والاكتئاب فلما رآها كليب على تلك الحال تغيرت منه الاحوال لانه كان يحبها محبة عظيمة ويودها مودة جسيمـــة لحسنها وجمالها وغنجها ودلالها ولاسيما ابنة عمه ومن لحمه ودمه فقال لها علامك يا جليلة مالي اراك في هذه الوبيلة فبكت من فؤاد مبتول وأجابته بهذه الابيات تقول :

مقالات الجليلة بنت مـــرة
كليب انت قيـــدوم السرايا

وتحكم في القبائل والعشائر
وفي كل المدائـــن والقرايـــا

وحكمك نافذ في كل ارض
وتخدمك الملـــوك مع الرعايا

واني بنت عمك يـــا مسمى
ومثلي ليس يوجد في البرايا

اتاني الزير خيك في غيابك
يريد فضيحتي بين الصبايـــا

قبضت عليه مـــن عنقه فولى
وراح بسرعة وسط الخلايـــا

الا يا امير قل كيف تعمـــل
فاقتله وارويـــه المنايـــا

وان لم تقتله حالا فانـــــي
اروح اليوم من وسط الخبايا

وتبقى الناس تشتم في قفانا
ونبلى بالدواهـــي والرزايا

وهذا الامر لا يصلح لمثلـــك
كريم الاصل عكاز المطايـــا

فاقتلـــه واخلص مـــن بلاه
ولا تحمل آثامـــا ولا خطايا

فقتل الزير اصوب من حياته
لانه خائـــن دون البرايـــا

فلما سمع كليب منها هذا الشعر والنظام غاب عن صوابه وارسل احد الرجال ليأتيه بأخيه الزير في الحال وذهب الرسول واستدعاه فامتنع عن الحضور لانه كان في ذلك الوقت يشرب الخمر مع جلسائه وهم فـــي فرح وسرور .

قال الراوي فرجع الرسول على الاثر وحدث الامير كليب بذلك الخبر فازداد كدرا على كدر وارسل الرجال اليه ثانية فما حضر عند ذلك سار

كليب اليه وقد عظم الامر لديه فلما دخل عليه نهض الزير على قدميه فسبه كليب وشتمه وضربه حتى آلمه ثم نزع عنه ثياب الحرير حتى صار معيرة للكبير والصغير وارسله مع الرعيان ، ايرعى النوق والجمال ، ورجع الى الجليلة واعلمها بما فعل مع اخيه المهلهل . فلما رات انها لم تبلغ الامل زادت غما وكدرا واخذت تدبر على هلاكه بحيلة اخرى فقالت ذات يوم الى كليب اما تخشى التهلكة والعار اما في راسك نخوة وناموس من جهة اخوك المهان المعكوس فقال ما معنى هذا الكلام وما هو المراد بهذا التوبيخ والملام قالت بلغني من بعض الغلمان الذين يدورون مع الرعيان بانهم فعلوا معه القبيح وانت جالس مستريح ليس عندك علم ولا خبرة وقد تحدث فيك جميع البشر ثم شرحت له واقعة الحال بهذا الشعر والنظام :

تقول الجليلة يا محفـوظ ... اتاني علم بحال اخوك
وشاع العلم بكل القوم ... غني الناس مع الصعلوك
وصار الناس بقيل وقال ... وكل البدو عليك ضحوك
انت امير كبير القوم ... وتيس وحمير قد هابوك
فكيف يكون اخوك الزير ... وقومك من اجله يجافوك
كيف بقالك راس يقوم ... والرعيان لقد عابوك
فاقتل اخوك في سيفك ... والا قومك قد لاموك
فكل العالم تحكي فيك ... يقولوا الزير بقي مهتوك
فهذا الاخ ومثله السف ... بيوم الضيق فما عانوك
اخاف يقولون كل اهله ... مثله والعالم يشكوك

فلما وقف كليب على حقيقة الامر التهب فؤاده واضطرب من شدة الغيظ والغضب ، واخذته الحمية وعصفت في رأسه النخوة الجاهلية فصمم ان يقتل اخوه ويسقيه كأس المنية فقالت الجليلة لا تقتله بيدك يا امير لان كلام الناس كثير فالاوفق ان تأخذه الى وادي العباس وهو مكان منقطع عن الناس كثير النمور والاسود وتتركه هناك وتعود فتفترسه الوحوش والاسود وتتخلص من كلام العباد فقال هذا هو الصواب والامر الذي لا يعاب وصعد ظهر جواده واعتد بآلة حربه وجلاده واستدعا الزير اليه وقال له مرادي ان اذهب للصيد والقنص لازيل ما بقلبي من الغصص فسر امامي فامتثل امره وجد في قطع البراري والقفار حتى وصلا الى الوادي المذكور وهو مكان مهجور وما زالا سائرين حتى صارا في وسط ذلك الوادي واذا بجواد كليب قد شخر ونخر وضرب الارض وتأخر واذا

بسبع من بطن الوادي قد ظهر فلما رآه الامير كليب هجم عليه بالجواد ورماه بالرمح فاخطأه فانهزم كليب من امامه خوفا من العطب فلما رأى الزير اخاه قد هرب تقدم نحو الاسد بقلب اقوى من الحجر وطعنه بخنجر كان معه فقده قسمين فأخرج قلبه فاكله وصاح على اخيه ارجع يا اخي ولا تخف فرجع وهو يتعجب من افعال الزير فنزل عن ظهر الحصان وقبله بين عينيه وصفا له في قلبه وقال في سره من يكن له اخ مثل هذا يفرط فيه وان عاش هذا الغلام يكون من عجائب الزمان ثم رجع واياه فلما رأته الجليلة قالت لماذا ما قتلته فأخبرها كيف انه قتل الاسد وقال الذي يكون مثله لا يستاهل القتل بل يجب له الاكرام ثم اشار قائلا :

يقول كليب من صفوة ربيعة	شديد البأس ذو عزم رجيح
كريم الاصل سلطان متوج	وفي طريق الكرم مالي شحيح
الا يا بنت عمي يا جليلة	الا يا صاحبة الوجه المليح
نظر اليوم من سالم فعالا	يشيب لها الطفل الطريح
لقاني السبع من خلفي وزمجر	فصار الزير من خلفه يصيح
فكر السبع نحو الزير هاجم	فعاد الزير واقف مستريح
ولما قددنا منه وقارب	ففار عليه كالسبع الجريح
طعنه الزير بالخنجر فقده	والقاه على الغبرا طريح
فلما شفت هذا الفعل منه	علمت بأنه فارس رجيح
رجعت اليه من فرحي سريعا	وصحت عليه في قول مليح
مهلهل يا مهلهل يا مهلهل	فأنت اليوم اولى بالمديح

قال الراوي فلما فرغ كليب من شعره زاد كدر الجليلة وقالت له وهي تبكي ما دام الامر كذلك فاني سأذهب غدا الى بيت اهلي واعلمهم بما ظهر من الزير بحقي فهم يقتلونه لاني لست اتمنه على نفسي اذا بقيت عندك لانه لا بد ان يغدر بي وعيونه محمرة علي وانت بعد كل هذا ليس عندك نخوة ولا ناموس فقال اذكري الله يا جليلة ودعينا من هذا فكيف اسمح بقتل اخي وهو من لحمي ودمي ولاسيما انه شديد البأس ومن اشجع الناس فاذا قتلته افتضحت بين العرب وتحدث في الناس قالت اقتله على غير هذه الطريقة خذه الى بير السباع وتدليه بحبل على نية ان ينشل الماء وحينئذ تقطع الحبل فيسقط في البير فيموت ولا يعلم به احد واشارت تقول :

مقالات الجليلة بنت مـــرة
احوك الزير مـا هو كثير عالم
احوك الزير شوفه مثل شبع
رويته ما يشوف الخير دائم
يا ليت الزير ينقص من حداكم
آلا يا حيف هذا من ربيعة
ترى خمسين خليفة من بيك
يبقى الزير هو تذل منكـم
وقتل الزير احسن من حياته
اقتل اهل الردى ولا عاش عمره
انت ابن عمي ونور عينـي
مقالات الجليلة بنت مـرة

ودمعي فوق وجناتي غزاره
يلعب مع وليـدات الصغاره
كما المجنون يلعب بالحجاره
كانه شبـه ضبع في مغـارة
ولا تبقى تظهـــر له جبارة
وتوعده ببنـات الامـــارة
امارة مـــن امارة من امارة
ليته لا يطيب مـــن الحرارة
ولا نهتك ما بين الامـــارة
واهفيه في حسامك مثل نارة
وشوري اليك ما هو خسارة
وناري عالقة مـن ذي الشرارة

قال الراوي وكان كليب يحب الجليلة محبة عظيمة ولا كان يخالفهـــا بشيء فلما الحت عليه وافقها على ذلك اكراما لخاطرها فنهض في ثانـــي الايام وركب جواده واخذ في صحبته الزير ومائة من الفرسان وسار بهم الى بير صندل السباع وعند وصولهم قال كليب يا سالم خيولنا عطشت الان فمرادنا ان ننزل ونسقيها وانت تنزل الى البير فتملأ كم دلو فقال حبا وكرامة يا اخي فدلوه في حبل واخذ يملأ الادلية وهم ينشلوا ويسقوا حتى ملأوا الارض الذي على باب البير وجاؤوا بالخيل ليسقوها فتزاحمت على بعضها البعض فسمع الزير وهو بالبير صهيل الخيل وجعيرها فصرخ عليها صوتا مثل الرعد القاصف حتى ارتجفت منه الوديان واضطربت منه قلوب الفرسان فجفلت الخيل وتأخرت وانفصلت عن بعضها فلما رأى كليب ما فعل اخوه سالم تعجب غاية العجب وندم على ما فعل وفي الحال اخرجه من البير وازدادت محبته عنده ورجع به الى الديار فلما رأته الجليلة غابت عن الوجود من شدة الغيظ وقالت بارك الله فيك أهكذا المفارقة فقال والله يا جليلة من كان يفعل هذا الفعل يحرم قتله ثم حدثها بما جرى وكان واشار يقول وعمر السامعين يطول :

جليلة اسمعـي يا بنت عمي
اقتله ليشفـي اليوم قلبـك
سباع الغاب مـن لقاه هابت
ثلاث الوف يلقاهـم بصدره
تقولي اقتله وارتـاح منـه

ارى عقلك بهـذا اليوم زائل
وقـــد ظهر لنا منـه فعايل
كذاك الخيل صيرهـا جفايل
من الشجعان فرسان القبائل
فقولك جهل ما هو قول عاقل

فانـي لا ابيعه بالف مثلــك ... ولو مهما جرى منه فعايــل
اراكـي تطلبي قتلـه سريعا ... فقولك عنه ليس لـــه دلائل
فقولك يا جليلة قول باطـل ... فحاشا الزير ان يتبع رذائل
اقلي من كلامك ولا تعيــدي ... ايا بنت الاماجد والاصايــل

فلما فرغ من شعره ونظامه فهمت الجليلة فحوى كلامه تكدرت ولكنها اظهرت السرور وقالت له ان قصدي امتحانك لارى هــل انت تحبه او تبغضه لانه فصيح اللسان ومن اشد الفرسان واخذت تمازح كليب بكلام النفاق حتى صفا قلبه وراق ثم انها صبرت مدة ايام وبعد ذلك اظهرت على نفـسها انها مريضة فرقدت في الفراش وقالت لكليب ان لي اليك حاجة ولا يقدر عليها سوى اخاك الزير فقال وما حاجتك قالت اريد مقدار كاسين من حليب السباع لانه يقوي الاعصاب وانا في غاية الضعف والعنا وقد وصفته دايتي علاجا لمرضي وقالت ان هذا الدواء يأتي بولد ذكر وانشدت:

مقالات الجليلة بنت مــرة ... كليب اسمع لي يا ابا اليمامة
وانت اليـوم ملـك البوادي ... يا ليت الحق بك يا امير داما
وتحكم يا ملك شرقا وغربـا ... من ارض الروم للكعبة دواما
وتحت يدك الوفا من العساكر ... وكـم حاكم وكم فيه مقاما
وكم ابراج مــن ذهب وفضة ... جواهر تشرق جناح الظلامـا
ولا لك طفل تحيي فيه ذكرك ... سوى سبع بنات مثل الحماما
اتانـي منـك سبع اتانـــي ... ولا جانـي منك ذكر غلامـا
وقالت دايتي لي يا جليلـــة ... معي لك علم تبري السقامـا

قال الراوي فلما انتهت الجليلة من شعرها ونظامها صدق مقالهـــا وارسل في الحال وراء اخاه الزير فدخل عليه وقبل يديه وقال انا عبد مأمور ولا أخالفك بأمر من الامور فأعلمه كليب بالواقعة وقال يا اخي اريد منك ان تاخذ هذا الحق الصغير وتملاه من حليب لبوة فقال على الراس والعين لكن يا اخي اعطني سيفا اتسلح به خوفا من هجوم السباع فقال كليب للجليلة ان تعطيه السـيف فقالت له الا تستحي يا زير ان تطلب سيف وانت في هذه الشجاعة فخجل واطرق راسه وسار في وقته وساعته وقد تأكد عنده انها تريد هلاكه وضرره وما زال يسير حتى وصل الى غابة كبيرة كثيرة الاشجار والصخور وليس معه سوى سكين وعصاه فبينما هو ينظر من خلفه وقدام واذا بأسد قد ظهر وهو هائل المنظر وعيناه تقدح بالشرر فلما

اقترب منه قبض عليه الزير من ذيله وشده بقوة زنده ولوحه بيده مثل المقلاع وخبط به الارض فرض عظامه ثم نزل عليه بالعصا حتى قتله واراد ان يحز راسه واذا بلبوة اقبلت ومن خلفها سبعة اشبال فلما رات ذكرها مات احمرت عيناها فأراد الزير ان يلاعبها قليلا وقد علم انها مغتاظة فجعل نفسه انه خائفا منها فركض امامها فتبعته وكان قد وصل الى شجرة كبيرة فطلع اليها وبقيت وهي تنظر اليه وتهمهم ثم اقبل اشبالها وجعلوا يرضعون من ثديها فوجد الزير لها ثدي يملأ الحق فقال هذا الذي طلبه مني اخي ثم اراد النزول فقال ان نزلت تفترسني من رجلي ثم رمى نفسه من الشجرة فجاء راكبا عليها فقبض على رقبتها والقى رجليه على بطنها بقوة وعزم شديد حتى لم يعد لها سبيل ان تتحرك من مكانها ثم سحب السكين وهو يضحك عليها ونحرها كما ينحر الجزار الغنم وملأ الحق من حليبها وقطع راس الاسد بعد ان ربط اشبالها بالحبال وساقهم امامه كالكلاب فلما اقبل على الحي ولاقته فرسان العرب وأصحاب المناصب والرتب استعظموا ذلك الامر واعتراهم العجب وعند وصوله الى القصر سمعت الجليلة الضجة فمدت راسها من الشباك فرات الزير وهو مقبل على تلك الحالة فالتهب قلبها بنار الغضب لانها كانت تظن ان يموت ويهلك ثم دخل الزير على الجليلة وكان كليب جالس معها ورمى الروس امامها وقدم الحق لامراة اخيه وقال لها هل تجدين شيئا اخر حتى اقضيه فقالت بارك الله فيك يا سبع الرجال فانك تستحق المدح والثناء وكان كليب لما راى رؤوس السباع تعجب من شدة بأسه وقال كيف فعلت والى اين وصلت فأشار يقول :

يقول الزير قهار المواكب ... رماني الدهر في كل المصائب
فلا تسمع اخي قول الاعادي ... لان الضد شوره ليس صائب
يشوروا عليك في راي وخيم ... ليسقونك اخي كاس العواطب
فأهل العقل لا تسمع لانثى ... لان كلامهـــا لا شك كاذب
فاعلم يا اخي فيما جرالـي ... بهذا اليوم في وادي الثعالب
وجدت السبع وسط الغاب دائر ... كأنه جائـع للصيـد طالب
فلما شافني حـالا اتانـي ... وكشر عن سنانـه والمخالب
فصحت عليـه صيحة جاهلية ... فقدم يا اخي هاجـم وطالب
حززت بخنجري راسه فأهوى ... على وجه الثرى للارض قارب
اتتني بعده لبـوة مغيـرة ... فلما شفتها وليت هـارب
رأيت اشبالهـا سبعة وراها ... فداروا لجهتي مـن كل جانب
فلما شفتهم جاؤوا لنحـوي ... طلعت لشجرة ذات الشعائب

فداروا حولها فرميت نفسي — فصرت اظهرها بالحال راكب
حززت لراسها ومليت حقي — حليبا بعد ان نلت المآرب
وراس السبع والبلوة قطعته — علامة للاغارب والاقارب
وسقت اولادها السبعة امامي — فلما صرت في وسط المضارب
لاقتني جميع رجال قومي — وحيتني الاقارب والاجانب
وهذا ما جرى لي في نهاري — وما قاسيت من هول المصائب

قال الراوي فلما فرغ سالم الزير من شعره ونظامه واخوه كليب مع الجليلة يسمعان كلامه فغضبت الجليلة من كلام الزير وكيف انه لمح بشعره عليها فقالت في سرها لا بد لي ان اعمل على قتله وبعد ذهابه قالت لزوجها كليب كيف يعلم اني ساعية في قتله ولم يكن عارف بما فعله معي من قبيح فوالله ان الموت عندي الذ من حياة فلا بد ما اشنق نفسي واستريح من جور اخيك القبيح ثم صارت تبكي وتصيح فقال كليب اخزي الشيطان ودعينا من هذا الكلام الان واخذ يتلطف بخاطرها ويقول لها كم مرة رميناه بالاخطار وهو يرجع بالغنائم سالما كاسبا فقالت الجليلة مرادي ان تسمع مني ما اقوله الان ولا عدت تسمع مني غير هذه المرة وهو ان تجعل نفسك مريضا وترقد في الفراش فاذا اتاك اخوك الزير حتى يراك فتقول له اصابك مرض شديد ووصف لك الاطباء شربة من بير السباع فاذا سمع منك هذا الكلام تأخذه الحمية والغيرة ويذهب في الحال لقضاء حاجتك فاذا راح لا يعود يرجع ابدا من كثرة السباع في ذلك المكان والكثرة تغلب الشجاعة فيفترسوه في الحال ونكون قد بلغنا الآمال لانني كلما تذكرت اعماله اريد ان اخنق نفسي والعرض عند الحر غالي ثم انشدت تقول من فؤاد مبتول :

الا اسمع لشوري ما اقلك — على علم الصحيح انا ادلك
اخوك هبيل ما بيسوى مسله — او قلع الجبال والف تلة
فارسله غدا الى بير صندل — وان ارسلته لهناك يقتل
ومنه تستريح مدى الدهور — وتحظى بالمقاصد والحبور

فلما سمع كلامها اجابها الى مرامها وانقطع عن الديوان ومقابلة الناس وجعل نفسه مريض واقام بالفراش ايام ولما شاع هذا الخبر علم الزير بذلك فتشوش خاطره لانه كان يحبه محبة عظيمة فدخل عليه فرآه راقد في الفراش وهو يئن من قلب حزين فقال سلامتك يا اخي ثم جلس بقربه وهو

يتوجع عليه ويسليه بالكلام فقال له كليب اعلم ان مرضي شديد وانا خايف منه وقد وصف اي الاطباء شربة ماء من بير السباع فمتى شربتها شفيت من هذا الداء وليس لي غيرك يا اخي من يأتيني بها فان كنت تحبني اريد منك الان يا فارس الفرسان وقاهر العدا في ساحة الميدان ان تذهب الى ذلك المكان وتأتي بالمطلوب والمقصود من بير السباع فقال الزير ابشر يا امير ثم نزل من عنده وجاء بقربتين فحزمهما على حمار ثم سار وجد في قطع القفار الى ان وصل الى بير السباع وكانت السباع في ذلك الوقت سارحة في البرية سوى سبع واحد كان راقد على حافة البير وهو واضع يديه على فمه ونائم فقال الزير في سره هذا نائم وعيب علي ان اقتله غدرا فتركه وفك القرب وربط الحمار من يديه ورجليه ونزل للبير من الدرج فملأ القرب واتفق انه عند نزوله الى البير شهق الحمار فصحي السبع ولما رأى الحمار هجم عليه وضربه بمخلبه فقتله وجعل يأكله فلما خرج الزير من البير وجد السبع قد قتل الحمار وهو يأكله اغتاظ جدا فوضع القرب على الارض وقصد نحو السبع بقلب كالحديد وقال ويلك يا مشؤوم كيف تأكل حماري اما علمت ببطشي واقتداري فوحق ذمة العرب لا بد من تحميلك القرب . وكان الاسد قد وثب عليه ونهض على رجليه فالتقاه الزير بالعصا وضربه ضربة شديدة وقعت على راسه فدوخته فوقع على الارض طائشا فجاء الزير بالحبل ولجمه لجاما قويا ووضع بردعة الحمار على ظهره ثم وضع عليه القرب ورفس الاسد برجله فنهض مثل السكران فقال ا زير يا قليل الادب الذي يأكل حمير العرب فهو اولى ان يحمل القرب ثم ركب على ظهره وساقه مثل الكلب وكلما عرج عن الطريق يضربه بالعصا على راسه حتى طاعه قهرا وجبرا فلما اقترب من الديار تذكر ما جرى له مع اخيه والاسد وكيف عاد ظافرا منصورا فجاش الشعر في خاطره فانشد يقول صلوا على طه الرسول :

انا المهلهل عزمي يفلق الحجرا ... والانس والجن تخشى سطوتي حذرا
كيد النسا تراه يلقى في عدم ... فخيب الله من يسمع كلام مرا
قالوا اخوك كليب اليوم منطرحا ... على الفراش ضعيف الجسم والبصرا
فجئته عاجلا حتى اسائله ... والعقل في حيرة مما عليه جرى
فقلت له كيف حالك انت اخبرني ... فقال يا مهلهل كيف انت ترى
اريد شربة ماء اطفي بها ظمئي ... من بير صندل ازيل الهم والكدرا
سرت حالا لذاك البير في عجل ... فنلت قصدي وعدت اليوم مفتخرا
هذي فعالي وكل الناس ترهبني ... حتى الاسود واهل البأس والامرا

قال الراوي وظل ينشد الاشعار حتى دخل الى الديار وهو راكب على ظهر الاسد غير مبالي بأحد لانه بلغ المقصود والارب وفعل فعالا تعجز عنها فرسان العرب ولما دخل الحي جفلت الخيل والجمال ودهشت النساء والرجال لما راوا الاسد على تلك الحال وكثرت الضجات وتصايحت النساء والبنات وسمع كليب والجليلة تلك الضجة فاطلا من الشباك فوجدا المهلهل قد اقبل وهو يسوق الاسد بعصاه فبكى كليب لما رآه وقال لابنة عمه الجليلة هل ينسخي بهذا البطل ان يقتل وقد جاء بالاسد وعلى ظهره القرب وهذا من اعجب العجب فاشتغل قلبها والتهب من شدة الغيظ والغضب وكادت تموت قهرا ثم نزل كليب اليه وقبله بين عينيه وقال لله درك يا فارس الميدان وزينة الشبان وبعد ذلك سأله عما جرى له وكان فانشد وقال صلوا على المبعوث بالكمال :

يقول الزير ابو ليلى المهلهل	ودمعي فوق وجناتي عايم
ذهبت اليوم نحو البير قاصد	اجيب الماء يا ابن الاكارم
وجدت السبع قرب البير راقد	فقلت بخاطري ذا السبع نائم
نزلت البير أملي القرب منه	وربي بالذي قد قلت عالم
ملأت القربتين وعدت حالا	لارجع للقبيلة والمعالم
وجدت السبع قد اكل البهيمة	ضربته بالعصا فعاد نايم
وحملت القرب من فوق ظهره	وجئت اليك يا فخر الاكارم
اطال الله ايامك وعزك	على طول الزمان وانت دايم

فلما سمع كليب هذا المقال اجابه على شعره :

يقول كليب اسمع يا مهلهل	فما لك من مثيل في العوالم
سباع البر خافت من هجومك	وولت في الفلا منك هزايم
سألت الله ان يحفظك دوما	وتحظى بالسرور وبالغنايم
فقم البس ثيابا من حرير	وافعل ما تريد يا ابن الاكارم
فمهما طلبت مني يا مهلهل	انا اعطيك والله عالم
اخي ما عاد عندي أعز منك	وحق الله خلاق العوالم

فلما فرغ كليب من كلامه انزل الزير القرب عن ظهر الاسد وضربه بالسيف والقاه قتيل ثم قطع راسه امام اخيه وقال الله اكبر فقد اخذنا بثأر الحمار وبلغنا ما نحب ونختار بعون الواحد القهار فأمر الخدام ان يدخلوا الزير الى الحمام فدخل واغتسل ولبس حلة من ارجوان وذهب

الى اخيه في الديوان فقام له على الاقدام واكرمه غاية الاكرام واجلسه في اعلى مقام فزاد اعتباره عند الامراء والاكابر واشتهر اسمه بين القبائل والعشائر وقال له كليب ذات يوم اطلب يا اخي ما تريد فان شئت مدينة اوهبتك اياها او امراة جميلة ازوجك بها ومالي بين يديك ولا ابخل بشيء عليك لانك اليوم ساعدي وزندي وانت الحاكم من بعدي فقال لا اريد سوى سلامتك والذي اريده منك ان تأمر لي بصيوان كبير مفروش بالفرش الفاخر عند بير السباع ويكون عندي جماعة من الخدم يقدمون لي ما احتاجه من الاكل والخمر لاني اريد ان انفرد عن الناس واكون وحدي بعيدا عن النساء وعندما تشتاق الي تزورني فقال كليب ما هذا العمل فوالله ما عاد لنا صبر على فراقك ولا عدت اسمع فيك كلام من الاعادي اللئام فابقى عندي في العز والاكرام فقال يا اخي قد صممت على الارتحال فالعزلة افضل للرجال الاحرار ولاسيما قد صار لي على السباع ثأر في قتل الحمار ولا بد لي من قتل جميع الاسود او يرجع الحمار ويعود فضحك كليب من كلامه وامر له بما طلب وقدم له جوادا من اطيب الخيول وجميع ما يحتاج اليه من السلاح والنصول والمشروب والمأكول وارسل معه عبدين يخدمانه ثم ودعه وساروا حتى وصلوا بير السباع فنصبوا له صيوان واقام في ذلك المكان وهو يأكل الطعام ويشرب المدام وكان في كل يوم يلبس عدته ويركب جواده ويصيد السباع وكان كلما قتل اسدا بثار الحمار وما زال على تلك الحال حتى أفناهم وبنى من رؤوسهم قصرا فلما طال عليه الزمان اخذه القلق والضجر لانفراده عن البشر وكان بينه وبين همام بن مرة محبة عظيمة ووداد فزاره الامير همام في بعض الايام ففرح بقدومه عليه وقال اهلا وسهلا يا ابن العم وترحب به غاية الترحيب وقال له لقد ضاقت نفسي من الوحشة والانفراد فوالله ما عدت ادعك ان تذهب من عندي ابدا وكان همام يصرف اكثر اوقاته فينادمه ويشرب معه المدام ويتناشدان الاشعار في الليل والنهار وما زالا كذلك في بسط وانشراح وطرب وافراح وشرب المدام وسماع الانغام مدة ثلاثة اعوام هذا ما كان من حديثهم في تلك الايام .

حرب البسوس بين بكر وتغلب

قال الراوي واعجب ما اتفق وتسطر من الاحاديث التي تروى وتذكر حديث العجوزة الشاعرة اخت الملك تبع حسن الذي قتله كليب كما شرحنا قبل وهي المراة التي ذكرها تبع لكليب في ملحمته بانها سوف تظهر بعده وتلقي الفتنة في القبائل وبسببها يقتل كليب بن ربيعة وتثير الحرب بين بكر وتغلب وباقي عشائر العرب وكانت هذه العجوز من عجائب الزمـــان وغرائب الاوان ذات مكر واحتيال وخداع ساحرة وكان لها اربعة اسمــاء سعاد لانها فــي يوم ولادتها وردت اليه اموال السبعة اقاليم وامها سمتها تاج بخت لانها كانت تأكل جوز الهند كثيرا وكانت معهذه الاوصاف القبيحة جميلة المنظر فصيحة اللسان شديدة البأس ولما كبرت وانتشت وصارت بنت عشرين سنة فكانت تصارع الطواشية وتركب الخيل في الميــدان وتبارز الابطال والفرسان فشاع صيتها في كل مكان وتواردت اليها الخطاب من جميع المدن والبلدان فكانت تقول لا اتزوج بانسان الا من يقهرني في الميدان فكانت تقهرهم في القتال وتعلم عليهم في ساحة الميدان فاقتصر عنها الخطاب وتباعدت عنها الطلاب وكان قد سمع بخبرها ملك عظيم اسمــه سعد الثاني وكان ملك بلاد السرور وابن عم اخوها تبع وبطل اروع وليث صميدع صاحب مدن وبلدان وجيش وفرسان فهام في حبها فركب فــي جماعة من ابطاله وسار قاصدا ديار ابن عمه تبع ليخطب اخته سعاد فلما وصل الى البلاد ترحب به الملك تبع واضافه ضيافة عظيمة لانه ملك وامره

نافذ في القبائل ففي اليوم الثالث قال سعد لتبع اعلم يا ابن عمي بانني حضرت من بلادي لاخطب اختك سعاد الدرة المصونة والجوهرة المكنونة فلا تردني خائب فهي ابنة عمي ومن لحمي ودمي وانا احق بها من كل احد فقال تبع اني ارغب بذلك غير انه لا يخفاك انها لا تتزوج بأحد كان الا من يقهرها في الميدان فقال اني ما اتيت الا على هذا الشرط فعند ذلك دخل عليها اخوها واخبرها بقدوم الامير سعد ابن عمها وانه قد جاء ليخطبها ويتزوجها بعد ان يبارزها ويحاربها فأجابته الى ذلك المرام وفي ثاني الايام اعتدت بآلة الحرب والجلاد وركبت على ظهر جوادها وبرزت الى الميدان وكان الامير قد ركب حصانه وزير الى الميدان والتقاها بقوة القلب والجنان واخذا يتقاتلان نحو ساعة من الزمان وكان الامير سعد صاحب نخوة وحمية ومن اشد فرسان الجاهلية فحاربها حتى تبعها ثم اقتلعها من بحر سرجها فأقرت له بالغلبة وبعد ذلك تزوجها واقام في الحفلة سبعة ايام ورجع بها الى بلاده فأخذت معها جميع ما تملكه من امتعة واموال وعبيد وغلمان واقامت مع زوجها في ارغد عيش وهناء مدة عشر سنين الى ان عمي زوجها وفقد البصر فصارت تحكم بداله واطاعتها العرب وعظم امرها واشتهر ذكرها وما زالت على تلك الحال وهي في ارغد عيش وانعم بال الى ان قتل كلب اخوها تبع كما سبق الكلام فلما بلغها هذا الخبر اخذها القلق والسحر وتنغص عيشها وتمرمر وقالت لا بد لي من المسير الى تلك الديار واقتل كليب الغدار فاذا قتلته اطفي ناري واكون قد اخذت بثاري فأقامت وكيلا يحكم بالنيابة عنها وركبت هي وزوجها وبناتها واخذت معها عبدين وما زالت تقطع البراري والآكام حتى وصلت الى بلاد الشام فسألت عن حلة بني مرة فأرشدوها اليها فلما صارت هناك قصدت الامير جساس دون باقي الناس ودخلت عليه وهو في الديوان وحوله جماعة من الامراء والاعيان فتقدمت اليه وسلمت عليه ودعت وترجمت وبأفصح لسان تكلمت وقالت ادام الله ايامك ورفع عن ملوك الارض قدرك ومكانك وبلغك اربك ومناك ونصرك على حسادك واعداك فتعجب جساس من فصاحة مقالها فأثنى عليها وسالها عن حالها فقالتانني شاعرة اطوف القبائل والعشائر وامدح السادات والاكابر وقد سمعت بجودك وكرمك ولطفك ومحاسن شيمك فاتيت الى دارك لاعيش بجوارك واكون مشمولة بأنظارك ثم اشارت تقول :

تقول سعاد من قلب موجع	زمان السوء ابقانا ذلائل
وبعد علانا صرنا كالغرائب	وبعد الكثر قد صرنا قلائل

وبعد العز قد صرنـــا اذلا
وبعد السمن قد صرنا هزايل

فهذا الدهر ما له قط صاحب
فهذا مستقيم وذاك مائـــل

وذا يبكي وذا يضحك ويلعب
وذا يندب عيالـه والحلائل

فسبحان الـذي قدر علينـا
بغربتنا وتشتيت الشمائـــل

فبعد ان كنت في خير ونعمة
دعاني الدهر كالطلاب سائل

ادور على المناصب والامـرة
وانزل فـي القرايا والمنـازل

سمعت بذكركم يا آل مـرة
ثلاث شهور لي عنكم اسائل

ابا جساس يا فخر البرايـا
ويا كهف اليتامى والارامـل

قصدتك لا تخيب فيـك ظني
ايا ابن الاماجد والفضائـــل

فاجبر خاطري ربي يجبرك
ويعطيك السعادة والفضائـل

فكم اوهبت مـن مال ونـوق
وكـم فرقت من خيل اصائل

فانت اليوم بين الناس فردا
ثناه مشاع فـي كل القبائل

عديم المثل ما بين الامـارا
وفيك تفاخرت عربان القبائل

عساك اليوم تنعـم لي بمال
ولا تصغي الـى واش وقائـل

فارجع بالغنائـــم والعطايـا
وبالخيل المسومـة الصواهل

فلما فرغت العجوز من شعرها ونظامها وفهم جساس فحوى كلامها قال لها مرحبا الارض ارضي والديار دياري وانت نزيلتي وفي جواري فكل من تعدى عليك قتلته ثم اشار يترحب بها ويقول :

قال جساس بن مرة يا عجوز
مرحبـا بـك بلا بطـــا

مرحبا بـك مرحبـا مرحبـا
عدد ما مشت الركاب بالوطا

في قدومك حلت البركة لنـا
فابشري بالخير مع كثر العطا

اسرحي ثم امرحي فـي حينا
ما اغيظك لو بدي منك خطا

قال الراوي فلما فرغ جساس من كلامه دعت له العجوز بالنصر وطول العمر والبقاء وقالت في سرها لقد نلت المراد بعون رب العبـــاد واقامت عنده شهرين وجساس يزيد في اكرامها وكانت قد رات اتفاق قوم كليب مع بني مرة وهم في محبة وموالفة عظيمة واجتماعات كثيرة كأنهما قبيلة واحدة فيما هان عليها ذلك الامر فاخذت تلقي الفتنة والفساد بين الامراء والقواد حتى وقع الشر والنزاع وكثر القيل والقال ولما اشتد الامر اجتمع اكابر الناس عند الامير جساس واخذوا يشكون من بني تغلب وســـوء معاملتهم وانهم يتعدون عليهم في كثر الاوقات بدون سبب وهذا كله من يوم ما قتل كليب التبع اليماني وامتد ملكه في الاقطار فابتدا يجور ويظلم

ولا يحسب حساب احد وقومه تفعل كفعله وكان مرادهم بهذا الكلام حتى يحمسوا الامير جساس. ويهيجوه على قتال كليب ولكنه لم يصغ لهم ولم يطاوعهم على مرامهم وقال لهم انه من الصواب ان اجتمع اولا مع ابن عمي كليب واعلمه عن تعديات قومه وجورهم علينا فان وجدت كلامه قاسيا يكون هو السبب في تقويتهم وان امر بتاديب المفترين نكون قد نلنا مرادنا وما زالت الفتنة بين الفريقين تمتد وتشتد حتى اتصل الخبر الى مسامع كليب وبلغه ان بني مرة هم اصل ذلك الخصام وانهم كل يوم في جمعيات واستعدادات فضاق صدره وتكدر وارسل يعلم جساس بذلك الخبر طالبا منه ان يبادر بالحال بقصاص المذنبين وتوقيف حركات المخربين واخراج العجوز من القبيلة التي كانت سببا لهذه الورطة الوبيلة فاغتاظ جساس من ذلك وتأثر وتأكد عنده كلام قومه وعلم ان اصل البلاء من كليب فلم يجبه بجواب ولا بخطاب واخذ جساس من ذلك اليوم يفرق على قومه السلاح ويقويهم بآلات الحرب والكفاح فبلغ بذلك الامير كليب فحار في امره وخاف على ملكه وتذكر اخاه الزير فركب في جماعة من الفرسان وقصده الى بير السباع فوجده جالسا على صفرة المدام مع ابن عمه الامير همام وهما يتناشدان الاشعار ويتحدثان بالاخبار فنهضا له على الاقدام واجلساه اعلى مقام وفرح الزير بقدوم اخيه كأنه كان له مدة طويلة غائبا عنه غير عالم بأن مجيئه لم يكن ناتج الا عن سبب ضروري جدا وبعد ان جلس قليلا قال كليب للزير اعلم يا اخي ان سبب مجيئي اليك اولا لاجل المشاهدة وثانيا حتى آخذك الى القبيلة واقيمك ملكا مكاني لاني طعنت في السن ولم يعد لي طاقة معاطاة الاحكام لاسيما قد تغيرت ووقع بين القبيلتين النزاع والجدال فاشتغل مني القلب والبال فقم معي الان يا سيد الفرسان فقال الزير والله لقد اشغلت بالي بهذا المقال فأنشد كليب وقال :

اخي سالم اسمع ما اقلك	ففكرك ديره والذهن ليا
اراك اليوم في زهو ولهو	ولا تدري ما حل فيا
بنو قيس وقعوا بخلف	وجساس نوى تركيب عليا
فقوم وشد عزمك يا مهلهل	لانك انت جبارا عتيا
والا راحت البلدان مني	وصرنا معيرة عند البرية

قال الراوي فلما فرغ كليب من شعره ضحك الزير حتى استلقى على قفاه فقال كليب ما اضحكك قال لقلة عقلك قال انا قليل العقل قال لو لم

لكن قليل العقل ما كنت تكلمت بهذا الكلام بعد ان نظرت هذا القصر الذي هو امامك قال كليب وما يكون هذا القصر قال المهلهل هذا قصر قد بنيته من رؤوس السباع الذي قتلتهم بثار الحمار ومع كل ذلك انت ملك عظيم وصاحب ولايات واقاليم فكيف تقول انك خائف وفزعان واخوك الزير فارس الفرسان فكن في أمان واطمئنان من نوائب الزمان فان كنت بثار الحمار الذي ليس له قدر بنيت قصراً من رؤوس السباع الا ابني من رؤوس الاعادي مدائن وضياع وحصون وقلاع فاذهب بالسلامة ولا ترتاع ثم اجابه على شعره يقول :

يقول الزير ابو ليلى المهلهل	انا لي في الوغا عزما قويا
سباع الغاب خافت من قتالي	وتخشاني ولم تقدر عليا
فاذهب يا كليب ولا تبالي	واحكم بالقبائل بالسوية
فان خارت بنو بكر وخانت	فلا اترك اخي منهم بقية

فلما سمع كليب شعره احتار في امره وندم على مجيئه ثم كرر عليه السؤال وطلب منه ان يسير معه خوفا من حدوث امر من الامور فقال الزير سر انت اولا سأتبعك فيما بعد فقال لماذا لا تسير الان فقال لا خفاك لما حضرت الى هذا المكان قتلت جميع السباع ما عدا سبعين او ثلاثة فمتى قتلتهم أدركتك في الحال فعند ذلك ركب كليب جواده وسلم امره لله وسار الى ان وصل الى الديار وهو في قلق وافتكار .

هذا ما كان من امر كليب ويرجع الكلام الى سعاد الشاعرة الساحرة الماكرة فانها لما اثارت الفتنة بين القوم وصار لها عند بني مرة ذلك القبول وجميع كلامها عند جساس مقبول اخذت طاسة من الفضة وملأتها من المسك والزباد والعطر وخفقت الجميع في بعضهم البعض وعمدت الى ناقتها الجربانة واخذت تطلي اجنابها وتدهنها بذلك الطيب ثم امرت بعض العبيد ان يأخذها الى المرعى ويمر فيها بالقرب من صيوان جساس في الصباح والمساء واوصته اذا احد سأله عنها وعن سبب رائحتها يقول له لا أعلم وإنما مولاتي تعلم فأخذ الناقة ومر من ذلك المكان فعبقت رائحة الطيب واستنشق جساس الرائحة الطيبة فتعجب وكان قد نظر الى العبد وتلك الناقة فأمر باحضار العبد وكان يظن تلك الرائحة عابقة منه ولما حضر واذا رائحته كريهة جدا فسأله عن تلك الرائحة فقال من الناقة فازداد تعجبا وسأله عن سبب ذلك فقال لست اعلم يا مولاي وانما مولاتي سعاد

الشاعرة تعلم ذلك فقال جساس هذا امر غريب واستدعى العجوز فحضرت ثم سالها عن قضية الناقة فتنهدت من فؤاد موجوع وقالت لا خفاك اوطال الله عمرك وابقاك ان هذه الناقة من سلالة ناقة صالح وفيها خواص غريبة الاحوال فان بعرها من المسك وبولها من العطر وعرقها من الزباد فتعجب جساس غاية العجب وقال تبارك الله رب العالمين فلا بد لي من اخذ هذه الناقة وافتخر بها على سائر الملوك ثم قال لها هل تبيعيني اياها يا حرة العرب وانا اعطيك مهما تطلبين من الفضة والذهب فلما سمعت كلامه بكت ولطمت وجهها وقالت والله هذا الحساب الذي كنت احسبه فاني ما هاجرت من بلادي الا لاجل هذه الناقة وكلما نظرها امير او ملك يطلبها مني وما دام الامر كذلك فاني سأرحل من عندك ثم بكت من قلب حزين وانشدت تقول :

تقول سعاد من قلب موجع	سقاني الدهر كاسات الحمام
ضنى من الفؤاد وغاب نومي	عمي بصري وقد زادت سقامي
انا حرمة ولي يد قصيرة	ولا لي قيمة بين الانام
وهذه ناقتي قد شتتني	عن الأوطان يا ابن الكرام
فكم من سيد جاء يشتريها	فما نالوا بها بل المرام
وقد جينا لديكم والتجينا	وقلنا قد حظينا بالسلام
وانت تريد ان تأخذها مني	فعاد رجوعنا اشهى مرام

فلما فرغت من كلامها اخذ جساس يتعطف بخاطرها ويقول لها ان كلامي معك هو على سبيل المزاح فناقتك مباركة عليك وانت المعززة عندي فقالت من حيث ذلك اريد ان تخص ناقتي بما يليق بها فقال ارسليها الى المراعي مع نوقي وجمالي فقالت انها لا تأكل الا من الرياحين وزهر البساتين فقال انه ليس لنا كروم ولا بساتين قالت وهذه الكروم التي اراها بجانب القبيلة من هو صاحبها قال هي لابن عمي كليب زوج اختي الجليلة وهمام متزوج اخته ضباع قالت ما دام انكم اهل واقارب وانت ملك نظيره فلماذا يكون كليب اعظم منك فقال انه من بعد قتله الملك تبع عظم امره وانتشر ذكره وتملك على البلاد واطاعته العباد فلما سمعت هذا الكلام قالت والله اني لقد اخطات وبئس ما فعلت فاني قد تركت البحر وجئت للساقية وتعلقت بالذنب وتركت الراس فاغتاظ جساس وقال ما معنى هذا الكلام يا حرة العرب فانك خرجت عن دائرة الصواب اهذا جزاء المعروف والاحسان

فقالت لا تغضب ولا تغتاظ وما قولي هذا الا من المحبة فكيف يملك ابن
عمك وصهرك هذه الاراضي العظيمة وانت ليس لك قدر ولا قيمة اهكذا
الاهل وابناء الاعمام ايها الملك الهمام فقال جساس وذمة العرب وشهر رجب
لقد تكلمت بالصواب وانا من الان ما عدت احسب له حساب لانه قد اغتر
وتمرد ولا عاد يحسب حساب احد ولا بد من ان اطالبه ليقاسمني الاملاك
والا القيته في الهلاك فروحي اطلقي ناقتك لترعى في احسن البساتين
فراحت العجوز وانشرح صدرها فقبلت يده وخرجت من عنده وقالت
لعبيدها خذوا هذه الناقة واتركوها ترعى في البستان المعروف بحمى
كليب واجعلوها تهدم الحيطان وتقطع اشجار وتكل الاغصان واذا اعترضكم
احد فاشتموه وسبوه واذا اقتضى الامر اقتلوه ولا تخافوا فقالوا سمعا
وطاعة ثم اخذوا الناقة وساروا بها الى ذلك البستان وكان روضة جنان
كثير الاشجار والفواكه والاثمار وكان كليب قد اعتنى به حتى صار من
احسن المتنزهات في الدنيا وكان لا يسمح لاحد ان يدخله سوى هو وعياله
فقط ولما اخذت العبيد الناقة دخلوا بها اليه بعد ان هدموا الحائط
وصاروا يقلعوا الزهور ويكسروا اغصان الشجر وكانت الناقة تاكل
العرايش وثمار الكروم وكان كليب اقام حارسا يحرسه اسمه ياقوت فهجم
على العبيد بالعصا وقال اخرجوا يا كلاب من البستان قبل ان يحل بكم
الهوان فضربوه وشتموه فهرب من بين ايديهم وجاء الى كليب واعلمه
بواقعة الحال فاغتاظ غيظا شديدا وجاء الى البستان ومعه اربع غلمان
فرأى العبدين احدهما جالس على سريره الذي يجلس عليه وقت النزهة
والاخر داير مع الناقة بين الزهور وهو يسب كليب فركض غلمان كليب
على العبدين ليقبضوا عليهما فتركا الناقة وهربا فاحضر الغلمان الناقة
لكليب فأمر بذبحها فذبحوها وطرحوها خارج البستان وكان عبيد العجوز
يروا ما يجري على الناقة فلما شاهدوا ذبحها رجعوا واعلموا مولاتهم بما
جرى وكان وكيف ان غلمان كليب ذبحوا الناقة بأمر مولاهم وطرحوها
خارج البستان قالت والان بلغت مرادي واخذت بثاري من الاعادي ثم
امرت العبد ان يسلخ الناقة ويأتيها بجلدها فسار العبد وسلخها وجاء
بجلدها اليها وقامت من وقتها ووضعت التراب على راسها وشقت ثيابها
مع بناتها وعبيدها وجوارها واخذت جلد الناقة وسارت بها الى عند الامير
جساس فدخلت عليه وهو في الديوان مع الاكابر والاعيان وصارت تندب
وتبكي والقت الجلد بين يديه فقال علامك ايها العجوز ما الذي اصابك

فحدثته بالقصة وقالت في اخر الكلام لو كنت اعلم ليس لك عند ابن ربيعة قدر ولا مقام ما كنت تركت ناقتي ترعى في حماه ويذبحها بل اني اعتمدت على كلامك نظرا لعلمي برفعة مقامك بين اهلك واقوامك حتى جرى ما جرى بسببك فلما فرغت العجوز من كلامها استعظم جساس تلك القضية وعصفت في راسه نخوة الجاهلية وقال للعجوز اذهبي بأمان فانا اعرف شغلي فذهبت الى خيامها واستبشرت ببلوغ مرامها ثم التفت الامير جساس الى من حوله من الامراء واكابر الناس وقال انظروا ما فعله في حقنا وهو صهرنا فقد اهاننا بهذا العمل وأنا لا بد لي ان استعد لقتاله في هذا اليوم فاما ان أقتل او ابلغ الامل فقالت له اكابر العشيرة تمهل يا امير فانه لربما لم يعلم انها ناقة نزيلك ومن الصواب ان ترسل له كتابا على سبيل العتاب وتطلب منه ثمن الناقة وتنظر ما يكون جوابه فان ارسل الثمن واعتذر كان خيرا وان ابى وامتنع فحينئذ تفعل ما تريد فاستصوب جساس هذا الراي وكتب كتابا الى كليب يعلمه بذلك الحال ويطلب منه ثمن الناقة وارسل الكتاب مع عبده يقظان فأخذ يقظان الكتاب وفي طريقه مر على تلك العجوز واخبرها بالقصة فترحبت به ولاطفته بالكلام وقدمت له الطعام ثم اخذت تسقيه المدام حتى سكر وغاب عن الصواب فعند ذلك فتشته في ثيابه حتى عثرت بذلك الكتاب فقراته فوجدته كتابا بسيطا خاليا من التهديد والوعيد فأضافت اليه كلاما مغيظا وهي هذه الابيات :

امير كليب يا كلب الاعارب	ابا ابن العم لا تكبر علينا
فلازم اذبحك في حد سيفي	وأنت شبيه حرمة اجنبية

ثم طوت الكتاب ووضعته مكانه ونبهت العبد فركب جواده وسار حتى وصل الى ديوان الامير كليب فنزل ودخل عليه وقبل الارض بين يديه وناوله الكتاب فأخذه وقراه فاغتاظ غيظا شديدا واراد ان يقتل العبد ولكنه كان رجلا عاقلا موصوفا بالحلم والحزم فأطرق براسه الى الارض وتفكر قليلا ثم قال لعل الامير جساس كتب هذا الكتاب وهو في حالة السكر غائب عن الصواب فمزق الورقة وامر بضرب العبد فضرب وقال له اذهب يا ابن اللئام الى عند مولاك بسلام والا اسقيك كاس الحمام فقام وهو في اخر رمق وركب حصانه وسار الى عند جساس وقال له عندما قرأ الكتاب مزقه وامر بضربي وقد شتمك وسبك وهذا الذي جرى فلما سمع جساس هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام فنهض في الحال ودخل خزانة

السلاح ولبس آلة الحرب والكفاح وركب ظهر حصانه وانحدف من صيوانه وصاح على ابطاله واخوانه وفرسانه فجاءوا اليه وداروا حواليه فأعلمهم بواقعة الحال وما جرى بينه وبين كليب من النزاع والجدال وقال لهم استعدوا لقتال بني تغلب الانذال واخذ ينخيهم بهذا الشعر والنظام :

يقول جساس نار القلب مشتعلة … طي الضمائر يا قومي لها لهيب
يا قومنا اسمعوا قولي واصغوا … اقول صحيح ليس لها تكذيب
كليب خلى الى احوالنا عبر … حكم البلاد مشارق ومغيب
وليس يحسب لنا قدر ومنزلة … الكل عنده غنم وهو الذيب
ناقة نزيلي ذبحها ما اختشى احدا … اجرى الى دمها شبه الانابيب
اتت عجوز فالقت بجلد ناقتها … بعد ما بكت بدمع سكيب
تنهدت ثم قالت يا ولد مرة … ابن عمك كليب عليك يعيب
هكذا كليب يفعل بنزيلك … ما لك قيمة عنده ولا ترحيب
فقلت لها اصبري يا عجوز علي … فانا اجيب لك منه ثمنها اجيب
ارسلت لها اليقظان عبدي … بكتاب ما فيه اسى ولا تعتيب
شق الكتاب وارمي العبد بضربة … ومن كثر الضرب ما ظنه يطيب

قال الراوي فلما فرغ جساس من شعره ونظامه وعرف قومه فحوى قصده ومرامه فما احد طاوعه على هذا المرام وقالوا له عن فرد لسان بئس الراي وهل يجوز لنا يا امير لاجل ناقة حقيرة نقاتل ابن عمنا الامير كليب ونرفع في وجهه السيف بعد ان صاننا وحمانا بسيفه وقتل الملك تبع حسان واستولى على الاقاليم والبلدان وجعل لنا ذكرا عظيما في قبائل العربان على طول الزمان فان كان لك عليه دم او ثار فدونك واياه فلا تطلب منا مساعدة ولا نجدة فلما سمع كلامهم تركهم وقصد بيت العجوز ولما اجتمع بها قال لها قد جئت اليك لارضيك بالعطايا خوفا من ازدياد الشر ووقوع البلايا فاطلبي ثمن ناقتك لاعطيك اياه ولو كان مهما كان قالت اريد واحدا من ثلاثة اشياء قال وما هو قالت اما ان تملأ خرجي بالنجوم او تضع جلد الناقة على جثتها لتقوم او راس كليب بالدماء يعوم فقال لها اما ملوك خرجك بالنجوم او الناقة تعيش وتقوم فهذا لا يقدر عليه الا الحي القيوم اما راس كليب فابشري به ثم قوم السنان واطلق العنان وقصد حي بني قيس فقالت العجوز لعبدها سعد خذ هذه السكين والمنديل الابيض واتبع جساس من وراءه فاذا رايته قتل كليب فاسرع اذبحه والطخ هذا المنديل الابيض من دمه فمتى فعلت ذلك فاني اطلقك لوجه الله تعالى فامتثل امرها وتبع آثار

جساس حتى وصل الى قصر كليب وسأل عنه فقالت له اخته الجليلة قد ركب الان وهو يطبع مهره في وادي الحصا والجندل فقصده حتى التقى به وهو يطبع مهره وكان كليب بدون سلاح ولم يكن معه سوى خيزرانـــة فقط وكان كليب دائر ظهره الى جساس لانه كان من عادته انه لا يلتفت في ايام الحرب الى اقل من مائة فارس فأراد جساس ان يغدره من قفاه فما طاوعته يده على ذلك مهابة ووقارا فلما وصل سلم عليه فرد عليـــه السلام فرآه مسربل بالسلاح فاستعظم كليب الامر وقال علامك يا ابن عمي اراك بالسلاح الكامل قال مرادي الصيد والقنص لكني لما التقيت بك عرجت اليك لاسألك سؤالا واحدا واعاتبك على ما فعلت فهل لان لك بساتين كروم ونحن ما لنا شيء حتى اتت لعندنا عجوز شاعرة مع بعل لها اعمى ورعت ناقتها في بستانك على جاهنا فقتلت الناقة اما لنا عندك قيمة ولا اعتبار بهذا المقدار .

قال الراوي فضرب كليب كفا على كف من شدة الاسف وقال والله يا ابن عمي ما عرفت انها ناقة نزيلك ثم ذكر له سوء ادب الرعيان وما فعلوا من الضرر في البستان ومع كل ذلك فاني اعوض عليها بأربعمائة ناقة واذا ارادت اكثر اعطيها ولا يكون ذلك سببا للنزاع والخصام بيننا فاننا اولاد عم واصهار فقال جساس على سبيل الخداع اني سأرضيها وهو قاصـد قتله ثم قال له مرادي العب معك سبقين بالجريد فقال كليب يا جساس انت راكب ظهر القميرة وانا راكب مهر جاهل فقال انا اسوق امامك والمهر يسبق الفرس فلاعبه كليب بالجريدة فأصابت ظهره فقلبته عن ظهر الفرس فانحدر الدم من فمه ومناخيره فقال كليب قم يا ابن العم فان كنت لا تريد ان تلعب غير هذه الجريدة فاسرع واضربني بها فينتهي الحال نـزل كليب عن ظهر المهر ومشى امامه اما جساس فانه قد تألم من هذه الضربة حتى انه لم يعد يستطيع القيام واذا بعبد العجوز اقبل اليه وجذبه من يـــده فأوقفه وقال والله انك من احقر الرجال ثم اعلمه بحاله وكيف ارسلتـــه العجوز خلفه لاجل تلك القضية فتحمس جساس ونهض ومسك له العبد الركاب فركب ثم تقدم نحو كليب والرمح في يده وطعنه في ظهره فخرج يلمع من صدره فوقع على الارض يتخبط في دمه فبكى كليب ملء عينيه ودمعه يسيل على خديه فلما رآه جساس على تلك الحالة ندم وتأسف على ما فعل فتقدم اليه وقبله من لحيته وعارضيه وضمه الى صدره ووضع راسه على ركبته وقال سلامتك يا ابن عمي يا ابا اليمامة فقد حلت بـــي

الندامة فوالله اني فعلت ذلك بدون عقل ولا تمييز فسامحني على هـذا الارتكاب القبيح فقال كليب من حلاوة الروح هذا حكم الاله المتعال ما كان املي منك ان تبادلني بهذه الفعال وتشمت فيّ الاعداء الانذال وتفرق بيني وبين اليتامى وما بكائي على مال ولا نوال وانما بكائي على اليتامى ولكن لهم رب لا يغفل ولا ينام وابكي ايضا على غدرك فانك قتلتني بالغدر والعدوان ولست من اقراني في الميدان ولا في ملتقى الفرسان ولكن سيجازيـك العادل الديان وسوف ترى ما يحل بك من الهوان ولا تظن بانه يصفي لك بعد الان زمان فقم الان واذهب الى الخيام واقري اليتامى مني جزيـل السلام ولكن اسقني قبل رواحك شربة ماء لان قلبي احترق من الظمـأ ثم قال :

يقول كليب اسمع يا ابن عمي ... ابا جساس قد اهرقت دمـي
ابا غدار تطعنني برمـــح ... ولست انت في الميدان خصمي
وأشمت الاحاسد والاعـادي ... وباتت اخوتي تبكـي وامـي
على ناقة تقتل ابن عمـك ... امير كريم من دمـك ولحمك
بيوم الضيق كان يزيل همك ... ويردي الضد في يوم النـزال

قال الراوي فلما فرغ كليب من شعره ونظامه فخاف جساس واصفر لونه وارتعش قلبه وقال والله يا ابن عمي لا يعرف الانسان ماذا قدر عليه ثم انه رفع راسه على ركبته وأتى له بماء فأسقاه وتركه ثم ركب وخلاه وهو يركض ويلتفت وراه قاصدا اهله وحماه واما عبد العجوز فلما اقترب منه رآه يجود بنفسه وهو على اخر رمق فتأمل فيه العبد فوجده ذا هيبـة ووقار ووجهه يتلألأ بالانوار فتأخر عنه وخاف منه فنظر اليه كليب فقال من حلاوة الروح وقال له من انت وما هو قصدك ومرامك فاعلمني بحالك فقال لا يخفى عليك انا عبد التبع اليماني فلما قتلته انت حضرت اخته سعاد العجوز الساحرة الى هذه البلاد لتأخذ بثاره منك وتطفي لهيب نارها وهي التي القت الفتنة بينك وبين ابن عمك حتى قتلك وارسلتني لاذبحك وآخذ لها اثرا من دمك فقال كليب لقد صدقت فقد ذكر لي الملك تبع هذا الكلام ونفذ قوله بالتمام وهذا تقدير رب الانام فأريد منك يا عبد الخير قبل ان تذبحني تفعل معي هذا الجميل وهو ان تلقيني بالقرب من هذه البلاطـة القريبة من هذا الغدير لاكتب وصيتي الى اخي سالم الزير واوصيـه باولادي ومهجة كبدي وبعد ذلك افعل ما تريد فسحبه العبد الى قـرب

البلاط والرمح غارس فيه والدم يقطر من جبينه فبكى كليب وتفكر وهو يتأمل ويتحسر ثم اخذ بيده عودا وغطه بالدم وانشد يقول :

يقول كليب اسمع يا مهلهل ... مثل الخيل قهار الاسود
على ما حل من جساس فيا ... طعني طعنة منها بعود
ابا سالم توصي باليتامى ... صغار بعدهم وسط المهود
واسمع ما اقلك يا مهلهل ... وصايا عشر افهم المقصود
فاول شرط اخوي لا تصالح ... ولو اعطوك زينات النهود
وثاني شرط اخوي لا تصالح ... ولو اعطوك مالا مع عقود
وثالث شرط اخوي لا تصالح ... ولو اعطوك نوقا مع كاعود
ورابع شرط اخوي لا تصالح ... واحفظ زمامي مع عهود
وخامس شرط اخوي لا تصالح ... وقد زادت نيراني وقود
وسادس شرط اخوي لا تصالح ... فان صالحت لست اخي اكيد
وسابع شرط اخوي لا تصالح ... واسفك دمهم في وسط بيد
وثامن شرط اخوي لا تصالح ... واحصد جمعهم مثل الحصيد
وتاسع شرط اخوي لا تصالح ... فانني اليوم في الم شديد
وعاشر شرط اخوي لا تصالح ... والا قد شكوتك للمجيد

قال الراوي فلما فرغ كليب من شعره ونظامه بكى العبد عليه ورثى احاله ثم تنفس الصعداء وهو مطروح وجعل يقول من حلاوة الروح اين الاحباب اين الاعوان والحجاب اين جندي ودولتي اين ملكي وصولتي تبا لحكم مصيره للزوال فيا ويل للذين يتجبرون على الاله المتعال ثم قال للعبد بالله عليك ان تمثل علي قليلا حتى اتودع من دار الدنيا واكتب لاخي وصية اخرى فقال العبد اكتب يا مولاي رحمك الله فأخذ كليب العود وكتب يقول:

يقول كليب من سادة ربيعة ... ودمعي فوق خدي كالقناة
جفاني الدهر خلاني سقيما ... فهذا الدهر كم مثلي فناه
خرجت انا على مهري اسير ... فليس بيدي انا سوى العصاه
فاذا ابن مرة جاء خلفي ... يريد قتلي وابليس طغاه
ضربته بعصاتي فوق ظهره ... تقنطر راح من فوق الوطاه
اتى من خلفه عبد غريب ... سريعا اركبه ووقف حداه
فاستعد وجاني في حال وسرعة ... ونار بالحشا زادت لظاه
قلي دير وجهك يا ابن عمي ... يريد الغدر مني بالقفاه
فاحكم طعنة فيا سريعا ... وراح جساس هارب بالفلاه
هديت لك هدية يا مهلهل ... عشر ابيات تفهمها الزكاة

اول بيت اقوله استغفر الله — اله العرش لا يعبد سـواه
وثاني بيت اقوله الملك لـلـه — بسط الارض ورفع السماه
وثالث بيت توصـى باليتامى — واحفظ العهد واياك تنسـاه
ورابع بيت اقـول الله اكبر — على الدهـر لا تنسى اذاه
وخامس بيت جساس غدرني — انظر الجـرح يعطيـك النباه
وسادس بيت قلت الزير اخي — شديد الباس قهار العـداه
وسابع بيت سالم كون راجل — لاخذ الثار لا تعطي ونـاه
وثامن بيت بالـك لا تخلي — لا شيـخ كبير ولا فتـاه
وتاسع بيت بالله لا تصالـح — وان صالحت شكوتـك للاله
وعاشر بيت ان خالفت امري — انا واياك الى قاضي القضاة

ولما انتهى من كلامه التفت الى العبد وقال له افعل الان ما تريد فقال والله يا امير ما تستحق الا كل خير ويدي لا تطاوعني على ذبحك فقـال اذبحني لاني في الم شديد وعن قريب تاتي اخوتي وباقي الرجال والحريم فعند ذلك اخرج العبد السيف وانحنى عليه وذبحه ولوث المنديل بدمـه ورجع الى سيدته واعلمها بقتل كليب واراها دمه ففرحت فرحا شديـدا وصبرت الى الليل ثم حملت وسافرت بمن معها من تلك القبيلة سرا حتى لا يعلم بها احدا وقالت لقد اخذت الان ثاري وطفيت لهيب ناري وامـا جساس لما رمى كليب وولى هارب سار حتى وصل الى قومه وهو في خوف عظيم اصفر اللون متغير الكون فقال له ابوه الامير مرة اين كنت قال كنت في البرية فالتقيت بابن عمي كليب فقتلته فزال همي وغمي فلما سمع مرة هذا الخبر ابدل صفو عيشه بالكدر وقبض على جساس من ذراعه كاد ان يخرج روحه من بين جنبيه وقال له يا عديم الذمام ويا اخبث الانام أتقتل ابن عمك وهو من لحمك ودمك لاجل ناقة حقيرة وصاحبتها ساقة فقيرة فماذا تقول العرب يا غدار اذا سمعت عنك هذه الاخبار فقد جلبت علينا الاذى والضرر وفضحتنا بين البشر وما زال يوبخه بالكلام ويلطمه من خلف وقدام حتى جاءت اليه اخوته وخلصوه من بين يديه وهم يعنفوه ويسبوه ويشتموه ما عدا الامير همام فانه كان عند الزير في تلك الايام وهما يتنادمان ويشربان المدام على بير السباع كما تقدم الكلام وليس عندهما خبر بهـذه الامور والاحكام ثم التفت مرة الى اولاده وقال لهم لقد حلت بنا المصائب من كل جانب فما الذي عاد يخلصنا من الزير ليث الوادي وقهار الاعادي فوالله ليقطع آثارنا ويعجل دمارنا ثم انه بعد هذا الكلام اشار يقول :

يقول امير مرة مـن قصيـد
بأن العار ما يمحوه مــاح
جلبت اليوم يا جساس حربا
علينا في المساء وفي الصباح
وقدت النار في بكر وتغلب
يعم لهيبها كـل النواحـي
ابا جـاس تقتـل ابن عمك
كليب البرمكي ليث البطاح
سـوف ترى بما يجري علينا
اذا برز المهلهل للكفـاح

قال الراوي فلما فرغ الامير مرة من هذا النشيد اجابه جساس بهذا القصيد :

فان الامر زاد عن المـزاح
تأهب مثل من يبغي الكفاحي
فاني ان جلبت عليك حربـا
فاني ليث حرب في الكفاح
فكف عن الملام فلست اخشى
بيوم الحرب من طعن الرماح
وانـي حين تنشهر المعالـي
اعيد الرمح في اثر الجـراح
تعدت تغلب ظلمـا علينـا
بلا ذنب يعـد ولا جنـاح
وما لي همة ابـدا وقصد
سوى قتل العدى يوم الكفاح

قال الراوي فلما فرغ جساس من كلامه قال له ابوه سوف ترى ما يحل بنا من البلاء والويل من سيف المهلهل فارس الخيل ثم بكى وضرب كفا على كف وقال لاولاده ان الراي عندي ان نكتف جساس ونرسله الى الزيـر واخوته ليقتلوه بثأر كليب وبهذه الوسيلة تزول الفتنة وتنطفي النار ، وتزول الاحزان والاكدار فان المصيبة عظيمة وعاقبتها وخيمة فقالت اولاده ما هذا الكلام يا ابانا فهل بعد كليب غير جساس يليق ان يكون فان كنت تحسب حساب المهلهل فما هو الا كالاهبل وليس له ادب الا اكل الكباب وشرب الشراب فقال مرة العياذ بالله من شر الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم ثم قال لاولاده ان اخيكم همام له عند الزير مدة من الزمان فنخاف ان يعلم الزير بقتل اخيه فيقتله ولا يبقيه .

قال الراوي وكان لهمام جارية اسمها رباب فاستدعاها مرة اليه وقال لها اقطعي البقاع وسيري الى بير السباع واعلمي همام سرا بما جرى وتجدد وقولي له ان يرجع بانحال خوفا من ان يقتل فسارت الجارية حتى وصلت الى هناك فوجدت الزير وهمام على سفرة الطعام وهما يشربان المـدام ويتحادثان بالكلام فلما رآها همام وثب اليها وقال لها ما دهاك قالت شر طويـل وحزن وعويل ثم اعلمته سرا بواقعة الحال وطلبت منه المسير الى الاطلال فلما وقف على حقيقة الحال اعتراه الانذهال وغاب عن الصـواب وتبدل انشراحه بالحزن والاكتئاب فلما طال بينهما الحديث والخطاب خرج

زير من بين الاطناب كأنه اسد فوجدهما يتكلمان سرا ويوميان اليه فعظم الامر لديه فسل الحسام وقال ما هو الخبر يا همام فاني اراكما في قلق واهتمام واشار يقول :

يقول الزير ابو ليلى المهلهل — احس النار في قلبي لهيب
فقلبي موجع والجسم ناحل — ولا الي الى جسمي طبيب
وشاب الراس مني والعوارض — فاني صرت في حال عجيب
ابا همام الا يا ابن عمي — فمالك خائف واقف رعيب
فمالي ابصر الحرمة تقلك — تناديك وانت لها تجيب
اراكم كم تكتموا الاسرار عني — كاني بينكم رجل غريب
اراكم في حديث وفي وشاوش — وبين ذا وذا امر عجيب
فلا تخلو الامور من الحوادث — ابا همام اعلمني تصيب
والا انتحوا لي الباب حتى — اروح وبالغنا قلبي يطيب

قال الراوي فلما فرغ الزير من شعره اجابه همام يقول :

يقوم همام اسمع يا مهلهل — تدمعي فوق الخدود سكيب
وناري بالحشا قد احرقتني — احس بضامري منها لهيب
اقول وانت تسمع يا مهلهل — بانك صاحبي نعم الحبيب
ولسنا يا ابن عمي في وشاوش — ولا انت بيننا رجل غريب
انا واياك في طرب ولهو — ولا تحسب حسابات الحسيب
جملنا يا فتى نيب جملكم — جرى دمه على نحره سكيب

فلما سمع منه الزير هذا الشعر توقد قلبه بلهيب الجمر واجابه يقول:

يقول الزير يا همام اسمع — انت ابن عمي ولي نسيب
فما لك علم في قتله كليب — ولا لك في القضية من طليب
فقم اذهب الى اهلك بسيبي — بلا تطويل من قبل المغيب
فتاتي اخوتي هم يقتلونك — ويدعونك على الغبرا كئيب
فما اقدر احميك منهم — وانت محب ابا نعم الحبيب
فوالله ثم والله والله — ثلاث اقسام يحلفها الحسيب
فلولا حبنا مع عيش اكلنا — وكاسات شربناها بطيب
لكنت امد يدي تحت سيفي — واخذ ثار اخوتي عن قريب

قال الراوي فلما فرغ الزير من هذا الشعر والنظام قال لهمام انت من دون بني مرة صديقي ونديمي وزوج اختي ورفيقي وليس عندك علم بهذا

الخبر المنكر فلا تخف ولا تفزع فقال همام لقد جرى القلم يا ابن العم والذي مضى ما بقي يرجع فاما ان تقتلني عوض اخيك او تاخذ منا ما يرضيك وترفع عنا الحرب والقتال وتتركنا نبقى في الاطلال ولقد صعب علي هذا الامر والتهب قلبي مثل الجمر لما سمعت بهذا الخبر المهول فلا كان جساس المهان قال الزير وحق من يعرف الغيب وروح اخي وحبيبي كليب اني لا ارفع السيف عنكم حتى اشفي غليلي منكم واقتلكم عن بكرة ابيكم واهتك بالنساء والبنات واجعلكم مثلا في الكائنات ولو لم تكن زوج اختي وسميري ما كنت اعلمتك بما في ضميري بل كنت قتلتك في الحال واورثتك النكال فسر الان الى الاطلال ولا عدت تريني وجهك في الحرب والقتال فلما سمع همام ذلك الكلام ركب ظهر الحصان واوما الى شيبان الذي كان معهما في ذلك المكان ان يسير معه الى الاطلال فامتنع عن المسير وقال سأبقى مع خالي الزير فسار همام وقد عظم عليه الامر وهو ينفض غبار الموت عن منكبيه حتى وصل الى حلته واجتمع بأبيه واخوته واخذ يلوم جساس على فعله وكيف تجاسر على كليب وقتله واعلم قومه بما عزم عليه الزير فخاف الكبير والصغير وايقنوا بالهلاك والتدمير واستعدوا من يومهم للحرب والقتال وجمعوا آلات الحرب والكفاح . هذا ما كان من بني مرة وأما الزير صاحب القوة والشجاعة والقدرة فانه بعد ذهاب همام الى الديار اشتعل قلبه بلهيب النار واعتراه الاصفرار فصار يلطم على وجهه بيديه وقد عظم الامر عليه حتى رقصت شعرات شاربيه ومع ذلك لم تنزل من عينيه دمعة واحدة لانه كان يعد من الجبابرة السبعة وكان يقول وحق رب العباد لا بد ان افتك ببني بكر الاوغاد واقتل الشيوخ والاولاد ولما طال المطال وهو على هذا الحال قال له شيبان بن همام دع عنك هذا الكلام واشرب المدام فانك عاجز يا خال عن الفعال فمن انت من ابطال حتى تتكلم بهذا المقال وتتبناها على الامراء واكابر الناس كابي همام وعمي جساس ثم انشد يقول وعمر السامعين يطول :

وانشد شيبان وقال في بيوت	ودمعي من عيني هطال
خالي اسمع ما اقول	وحط قولي وسط البال
تقول تكيد بني مرة	وتقتل منهم كل الابطال
غدا يا خالي هم يأتوك	بخيل كثيرة ونعم رجال
تظهر خيول عليك تجول	ودق طبول كما الزلزال
تروح الارض بطول وعرض	تروحو قتل بضرب صقال
يجي جساس قوي البأس	كذا العباس زكي الخال

وثاني عمر بخيل ضمر — وصقر ونمر وابو جفال
واخي شيبون بطل مجنون — وابي همام ان جال ومال

فلما انتهى شيبان من كلامه اجابه الزير على شعره ونظامه :

يقول الزير اواه اواه — يا ابن اخي عقلي زال
تقولي غدا الفرسان تجيك — تخوفني من هالانذال
تاريك انت عدو مبين — كلامك ما خلالي حال
وانا العربيد بيوم نكيد — للروس اكيد يطعن عوال
وبعد كليب لابيع الروح — اشلكم بالرمح شلال شلال
وبعد كليب لاخلي السيف — طول العمر بيكم عمال
وانت يا ابن اختي اليوم — فطوري عدت بغير محال
وابوك اغدي سيفي فيه — واعشي الرمح من الابطال

فلما فرغ الزير من انشاده نهض الغلام ليركب على جواده ويلحق بأهله ضربه الزير بحسامه القاه على الارض قتيلا وفي دمه جديلا ثم قطع عنقه في مخلاة حصانه ولفها في قروص السرج وتركه فسار الجواد حتى وصل الى بيت هؤلاء فلما راته ام الولد وهو في تلك الصفة قالت للجارية دونك جواد سيدك فتقدمت الجارية واخذت المخلاة ، فوجدت فيها راس شيبان فاستعظمت ذلك الامر واعلمت مولاتها بواقعة الحال فطار عقلها لما نظرت راس ابنها مقطوع وضجت بالبكاء والنواح والعويل والصياح فاجتمعت عليها نساء الحي من كل مكان ولما سمع همام الخبر طار من عينيه الشرر فبكى وقال ازوجته ضباع نظرت ما فعل اخوك . فوالله لم يبق لي غريم سواه فشقت ثيابها وسارت الى عند اخيها المهلهل ولامته على ما فعل وقالت له اتقتل ابن اختك بثأر اخيك ثم اشارت تقول :

تقول ضباع يا سالم علامك — بجاه كليب ما سويت بابني
بثأر كليب تقتل ابن اختك — وتحرق مهجتي وتزيد حزني
حزنت على كليب وما جرى له — وحزني من صميم القلب مبني

فأجابها الزير بهذه الابيات :

يقول الزير من قلب حريق — بقتل كليب زاد اليوم حزني
الا يا اخت قللي من بكاك — ولا تخشين من امر يتعبني

فوالله ثـم والله والـه الـه العرش مذ ادعو يجبني
فلا بد لي من حرب الاعادي واقتل كل جبار طلبني

فلما فرغ الزير من كلامه قالت له لله درك يا سالم يا قهار الاسود الشاعم لقد زالت لوعتي الان وخففت عني الاحزان لما سمعت شعرك يا فارس الفرسان وعرفت ما انت معول على الحرب والطعان واخد الثار وكشف العار ثم رجعت الى الديار وهي في قلق وافتكار هذا ما كان من امرها .

قال الراوي ولما اشتهر موت كليب ووصل الخبر الى ابياته وعلمت بذلك جميع اهله فمزقوا الثياب واكثروا من البكاء والانتحاب فتهتكت الوجوه الملامح ووقع في الحي العويل والصياح وكسرت الفرسان والسيوف والرماح وخرجت بنات كليب من الخدور وهن مهتكات الستور ناشرات الشعور حافيات الاقدام يقطعن السهول والآكام وقدامهن اليمامة وكان ذلك اليوم مثل يوم القيامة ولما وصلن اليه وجدن الطيور حائمة عليه فوقعن على جثته وقبلن يديه وارتمين حوله ولما قران ذلك الشعر الذي كتبه على الصخرة زادت احزانهن واخذن يلطمن على وجوههن ثم اقبلت اخوة كليب الى ذلك المكان وازدحمت الرجال والنسوان والابطال والفرسان والسادات والاعيان يرثوه بالاشعار وجرت دموعهم كالانهار وابنته اليمامة فعلمت انه لا يوجد من يأخذ بثارها ويطفي نارها سوى البطل الاوحد والسيف المهند والضحضاح الشهير الذي ليس له نظير عمها المهلهل الملقب بسالم الزير فسارت اليه هي واخوتها وتواقعن عليه وقلن والله يا عماه ما كانك حزنان بما جرى علينا وكان من طوارق الزمان بقتل اخيك كليب ملك العصر والاوان ثم القت اليمامة نفسها في حجر فضمها الى صدره وقد حار في امره ولما فاقت اشتدت عليها الحسرات فانشدت هذه الابيات :

مات ابي في طعن القنـا غدر بهجساس ذا الكلب المشؤم
وانت اليوم جالس في صفاك يا مهلهل بالعجل انهض وقوم
يا مهلهل ضاقت الدنيا عليّ وسقاني البين كاسات السموم

قال الراوي فلما فرغت اليمامة من هذا الشعر والنظام زادت على المهلهل الاوجاع والآلام فنهض على الاقدام كانه سبع الآجام وصار النهار في وجهه مثل الظلام وقال لبنات اخيه سوف ترون ما افعله واجديه ثم اعتد بآلة حربه وجلادة وركب ظهر جواده وسار مع البنات يقطع الاراضي

والغاوات حتى وصل الى ذاك المكان فوجده مملوءا بالابطال والبنـات والنسوان وهم يبكون ويلطمون وينوحون ويندبون فلما راوا المهلهل قد اقبل فتحوا له طريقا حتى دخل فوجد اخاه وهو مطروح والدماء من جسده تقطر وتسوح والناس واقفة حواليه فالقى نفسه عليه وهو يبكي من ملء عينيه ويقول سلامتك يا ابو اليمامة ويا صاحب الكرامة فقد احرقت قلبي بفقدك فلا كان من يعيش بعدك ولما اشتد عليه الامر ارته اليمامة وصية اخيه المكتوبة على الصخر فقراها وقال وحق الاله المتعال اني لا اصالح الى الابد ما دامت روحي في هذا الجسد ثم بكى وتنهد ورثا بهذا القصيد امام السادات واكابر العمد وهي من اجود مراثي العرب واحسن اشعار اهل الفضل والادب :

كليب لا خير في الدنيا وما فيها … ان انت خليتها من يبقى واليها

الناحر النوق للضيفان يطعمها … والواهب المئة الحمرا براعيها

اضحت منازل بالخلان قد درست … تبكي كليبا نهارا مع لياليها

كليب اي فتى زين مكرمة … تقود خيلا الى خيل تلاقيها

غدرك جساس يا عزي ويا سندي … وليس جساس من يحتسب تواليها

لا اصلح الله هنا من يصالحهم … حتى يصالح ذنب المعز راعيها

وتولد البغلة الخضرا بلا ذكر … وانت تحيا من الغبرا تلبيها

وتحلب الشاة من اسنانها لبنا … وتسرع النوق لا ترعى مراعيها

فلما فرغ الزير من هذه المرثاة وسمعتها السادات والامراء تعجبوا من فصاحة لسانه وقوة قلبه وجنانه وما احتوت عليه من الالفاظ الرقيقة والمعاني البليغة الدقيقة وقالوا والله لقد اجاد الزير وفاق الشعراء والمشاهير بكلام كالدر النضيد ثم اجتمعت الامراء والمقدمين وقالوا للعرب المجتمعين ما فائدة البكاء والانتحاب واكرام الميت دفنه في التراب ثم اتوا بكليب الى الديار ودفنوه بكل احترام ووقار واعتبار ورثوه بنفائس الاشعار وبنوا على قبره قبة من اعظم القبب وطلوا حيطانها بالفضة والذهب فكانت من اعجب في بلاد العرب زخرفوها بالنقش الفاخر وكتبوا عليها اسماء الاله القادر وهي هذه الاسماء التي يتكنى بها رب السماء وقد اثبتناها في هذا الكتاب افادة للطلاب (اسماء الله الحسنى) الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق الباري المصور الغفار القهار الوهاب . الرزاق . الفتاح العليم . القابض ، الباسط الخافض

الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير الحكيم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب المجيب الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدي ، المعيد ، المحيي ، القيوم ، الواحد ، الماجد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المؤخر ، الاول ، الاخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي المتعال ، البر ، التواب ، المنعم ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والاكرام ، الرب ، المقسط ، الجامع ، الغني المغني ، المعطي ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادىء ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصادق ، الستار .

قال الراوي وبعد ان تلوا اسماء الاله وسمعتها السادات والرؤساء والعشائر ودفنوا الامير كليب كما تقدم الكلام ذبح الزير على قبره النوق والاغنام وفرق المال على الارامل والايتام ثم جلس في الديوان اكابر الاعيان والابطال والفرسان واخوانه الشجعان وقال لهم اعلموا ان جساسا اهانكم وقتل ابن عمكم وملككم فاستعدوا لاخذ الثار وكشف العار من بكر الاشرار فلما سمعوا هذا الكلام اجابوه الى ذلك المرام وقالوا عن فرد لسان اننا بين يديك ولا تبخل بأرواحنا عليك لان الامير كليب لا ينتسي ولم تلد مثله النساء ثم انهم تحالفوا معه وعاهدوه وعلى كرسي المملكة بايعوه واجلسوه فلما تملك على القبيلة طرد امراة اخيه الجليلة فسارت الى بيت ابيها مع اهلها وجواريها وكانت حاملة بولد ذكر سوف يأتي عنه الخبر واستعد الزير من ذلك اليوم لقتال القوم وحلف بأعظم الاقسام بأنه لا يشرب المدام ولا يلتذ بطعام حتى يأخذ ثأره بحد الحسام ولا يبالي بالويل ثم امر الرؤساء والفرسان والقواد بجمع العساكر والاجناد وان يكونوا على استعداد للحرب فامتثلوا امره بالحال وتجمعت الفرسان والابطال حتى امتلأت الروابي والتلال وقد انضمت اليه عدة قبائل وامدوه بالعساكر والجحافل حتى صار في اربعماية الف مقاتلة قال ولما بلغ بني بكر هذا الخبر اعتراهم القلق والضجر وخافوا من العواقب وطول النوائب فجمعوا المواكب والكتائب وسار بهم الامير مرة الى وادي الذئاب وهو مكان شهير يبعد ثلاثة ايام عن قبيلة الزير وهناك انضمت اليهم بعض القبائل من العربان فكانوا نحو ثلاثماية الف واقاموا في ذلك المكان ولما سمع الزير برحيل مرة وأولاده الى تلك الديار قال لا بد ان اقتفي الآثار وافني الكبار والصغار ثم امر القائد الصفير بسرعة المسير فامتثلوا ما امر وفعلوا ما

ذكر وفي الحال دق الطبل الرجوج فارتجت فيه السهول والمروج ...
الطبل الذي كان لتبع حسان ولم تكن الا ساعة من الزمان حتى ركب
الابطال والفرسان وركب المهلهل متسربل بالسلاح كأنه ليث الغاب وعلى
راسه الرايات ومن حوله القواد والجنود فعند ذلك سارت المواكب قاصدة
وادي الذئاب وما زال العسكر يقطع البر الاقفر الى ان اشرف على تلك
الديار وفي اليوم الثالث عند منتصف النهار لما قرب المكان وانكشف
للعيان ورآه الامير مرة ومن معه من الرجال والفرسان قالوا لقد اقبل علينا
الزير بالجموع والفرسان والمشاهير واليوم تباع الارواح بيع السماح وفي
الحال انتخب الامير مرة الفا من الابطال وارسلهم لملاقاة الاعداء في تلك
البيداء وكان المقدم عليهم ابنه الامير جساس وجماعة من عظماء الناس
فسار الجحفل طالبا جيش المهلهل ثم فرق الفا اخرى في الصحراء وقدم
عليها ابنه همام وحثهم على الحرب والصدام واقام هو وباقي العسكر على
الجانب الايسر حتى اذا انكسرت الفرقتان يحمل بمن معه من الفرسان ولما
شاهد المهلهل تلك الحال وانقسام الرجال والابطال قسم عسكره ثلاثة اقسام
وتقدم ولما اقتربت العساكر من بعضها البعض وانتشرت جموعها في تلك
الارض حملت الفرق على الفرق والجيش على الجيش قد انطبق وقصد
المهلهل فرقة الامير مرة بعشرة الاف من اهل الشجاعة والقدرة واشتبك
القتال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال وارتجفت الوديان من قعقعة
النصال فكان يوما مريعا فظيعا يشيب منه الطفل الرضيع فما كنت ترى
الا رؤوسا طائرة ودماء فائرة وفرسانا غايرة فلله در المهلهل وما فعل في
ذلك اليوم من العمل فانه هجم هجمة الاسود وفرق المواكب والجنود
ونكس الرايات والبنود وقتل كل جبار ونمرود وكان كلما قتل فارس منتخب
يقول بالثارات كليب ملك العرب ويلقي نفسه في مهاوي العطب املا بالنصر
وبلوغ الارب وما زال على تلك الحال حتى قتل خمسمائة من الابطال ولما
اشتدت الاهوال تأخرت عنه الرجال خوفا من الهلاك والوبال وهو يجول
ويدور ويهدر كالاسود والنمور ويقول واكليبا قتيل الجور اين عيناك تراني
وتشاهد حربي وطعاني فيا ليتني كنت فداك ولا كان من يسلاك .

قال الراوي وكانت نيران المعامع والحروب والوقائع مشتبكة في ثلاث
مواضع واستظهرت جيوش المهلهل على اعدائها وبلغت غاية مناها وفعلت
باقي الفرق كما فعل سيدها ومولاها واستمر القتال على هذا الحال من
الظهر الى غروب الشمس فقتل من بني بكر ثلاثين الف نفس ومن جماعة

المهلهل نحو خمسة الاف بطل فمند ذلك دقت طبول الانفصال فارتدت عن بعضها الفرسان ونزلوا في الخيام والمضارب ورجع المهلهل وهو الغالب وكانه ارجوان مما سال عليه من ادمية الفرسان فاجتمع السادات والاعيـــان فهنئوه بالسلامة وقالوا مثلك تكون الشجعان يا زينة الاكوان وجوهرة هذا الزمان فشكرهم على هذا الكلام ووعدهم بالخير والانعام ثم اكلوا الطعـــام واخذوا يتذاكرون بامر الحرب والصدام وكان للمهلهل صديق يركن اليه ويعتمد في اموره عليه قوي الجنان فصيح اللسان يقال له امرؤ القيس ابن ابان وكان يقاربه بالفروسية ويساويه بالفصاحة والهمة العلية فقاتل معه في ذلك اليوم وفتك في صناديد القوم وكان لا يفارق الزير في القتــــال ويحمي ظهره من غدر الرجال فقال له امام الفرسان ما رايك يا ابن ايان في الهجوم على الاعداء اللئام تحت جنح الظلام فاني والله كلما اذكر قتل كليب تتوقد بقلبي النيران وليس لي عنهم صبر ولا سلوان فقال تمهل يا امير مهلهل فان النهار قد اقترب ولا بد لنا من بلوغ الارب لان القتال في الليل يجلب علينا الويل فتخلط الاحزاب ولا تعود تعرف الاعداء من الاحباب لان الظلام يحجبنا عن بعضنا البعض ونتشتت في هذه الارض فاستصوب الزير كلامه وبات الجيشان يتحارسان واوقدوا النيران فكانت بنو بكر وباقي قبائل العرب قد باتت في شدة وتعب وايقن الامير مرة بأنه سيغلب ويقهر من سيف الزير الاسد القسور ولما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح تبادر العساكر الى ميدان الحرب والكفاح واصطفت الفرق الى صفوف وترتبت المئات والالوف وتأهب المهلهل للحرب والطعان فركب ظهر الحصان وتقدم معركة الطعان وتبعه امرؤ القيس بن ايان وسائر الابطال والفرسان بقلوب اقوى من الصوان وركب الامير مرة وبقية الفرق وتمنطقوا بالسلاح والدرق ودقت الطبول وصهلت الخيول وارتفعت الرايات على رؤوس الامـــراء والسادات من جميع الجوانب والجهات وهجم كل فريق على فريق وتقاتلوا بالسيوف والمزاريق والتقت الامم وقام الحرب على ساق وقدم وما مضى ساعة من النهار حتى اشتد لهيب النار وطلع قتام الغار واندل الجبـــان وحار وارتفع الصياح وعلا وارتجت اقطار الفلا ولبست الارض من الدما حللا وعظم بينهم البلا والويل وعاد بياض النهار كسواد الليل واقتحم المهلهل صفوف الاعادي كانه ليث الوادي وجال الميامن والمياسر وطعن بهم طعنـــا يذهل النواظر ويحير العقول والبصائر وهو يقول بالثار كليب مهجة فؤادي ومن كان سندي واعتمادي ولما طال المطال اشفى غليله من قتال الابطال وقال:

ذهب الصلح او تردوا كليبا او تبيد الحيبني بكرا ودهلا
ذهب الصلح او تردوا كليبا او ادق الرجال قهرا وذلا
ذهب الصلح او تردوا كليبا او تعم السيوف شيبان قتلا

فاندهلت الفرسان من هول قتاله وحربه ونزاله وما زال الحرب يعمل والدم يبذل والرجال تقتل الى ان ولى النهار وارتحل ودخل الليل واقبل فرجع الامير المهلهل بباقي الجيش والجحفل وجميع اكابر عشيرته واهله واخوانه يتحادثون فيما يجري ويكون فاستقر الراي على سرعة الانجاز والجهاد في الحرب والبراز قبل ان يطول الامر وتفوتهم الغلبة والظفر ثم اكلوا الطعام وباتوا في الخيام ولما طلع النهار واشرقت الشمس والانوار تاهبوا للحرب والكفاح فتقلدوا بالسيوف والرماح ودقوا الطبول وركبوا ظهور الخيول وتقدمت الفرسان والابطال الى ساحة القتال وكذلك فعل الامير مرة والامير جساس ومن يلوذ بهم من عظماء الناس والتقت العساكر وتقاتلوا بالسيوف والخناجر وكان الامير المهلهل في اول الجحفل فصاح وحمل والتقى الفرسان بقلب اقوى من الجبل وهو يهدر كالاسد ويضرب فيهم بالسيف المهند وكان كلما قتل فارسا يقول بالثارات كليب فقصدته الابطال من اليمين والشمال وهو يضرب الصائب ولا يبالي بالعواقب حتى مزق الصفوف بحملاته وفرق الالوف بطعناته وما انتصف النهار حتى قتل مائة بطل كرار وكانوا من الابطال والفرسان المعدودة كذلك فعل امرؤ القيس ابن اياد وباقي القواد والشجعان وما زالوا على تلك الحال الى ان ولى النهار واقبل الليل بالاعتكار فارتدوا عن الحرب والصدام ورجعوا الى المضارب والخيام وكان قد قتل من عرب جساس في ذلك النهار عشرون الف بطل كرار ومن عرب المهلهل نحو ثلاثة الاف بطل ولما اصبح الصباح استعد الفرسان للحرب والكفاح فركبوا ظهور الخيل وتقاتلوا بالسيوف والنصول وهجم المهلهل على الفرسان الفحول ينشد ويقول :

هلموا اليوم نفني آل مرة ولو كانوا ثلاثين كرة
وسيف الهند يقطع في يميني فلا تخشى المهالك والمضرة
فاحموا يا بني عمي لظهري فتحظوا بالاماني والمسرة
فكل الناس ترهب من قتالي اذا ما جلت في الميدان كرة
وسوف ابيد جساسا وقومه واسقيهم من حروبي كأس مرة

ثم حمل على الكتائب واظهر الغرائب والعجائب وقتل كل شجاع غالب

وما زال القوم في حرب وصدام وقتل وخصام مدة ثلاثة شهور حتى اشفى الزير غليله من بني بكر وقتل منهم كل سيد جليل وفارس نبيل وكان عدد من قتلهم في تلك الوقائع نحو ماية الف مقاتل ما بين فارس وراجل وقتل من جماعة الزير نحو عشرة الاف بطل فلما راى جساس ما حل بقومه من النوائب خاف من العواقب وعلم انهم اذا ثبتوا امامهم يهلكون هلاك الابد ولا يبقى منهم احد فولى وطلب لنفسه الهرب مع باقي طوائف العرب وغنم الزير غنائم كثيرة واموالا وفيرة ثم رجع مع الفرسان الى الاطلال في احسن حال وانعم بال ونزل في قصر اخيه وصارت ملوك العرب تكاتبه وتهاديه وكان يترقب الاوقات للحرب والغزاة فشكرته اليمامة على ما فعل وقالت لا عدمتك ايها البطل فانك اخذت الثار وطفيت لهيب النار ورجعت بالعز والانتصار فشكرها على هذا الكلام وقال وحق رب الانام لا يشفي فؤادي ولا يطيب لذيذ رقادي حتى اقتل الامير جساس واجعله مثلا بين الناس وهذا الامر سيتم عن قريب باذن السميع المجيب .

قال الراوي بينما هو يترقب الاخبار ويقتفي منهم الآثار اذ دخل عليه العابد النعمان الذي تقدم ذكره قبل الان وكان من اصحاب الزير واصدقائه المشاهير فسلم عليه وتمثل بين يديه فنهض له على الاقدام واكرمه غاية الاكرام وبعد ان جلس قال للزير اعلم يا امير اني اتيت الان من ابعد مكان اولا لاهنيك بالانتصار واعزيك على فقد اخيك البطل الكرار وثانيا علمك بانه ظهر لي في المنام من مدة عشرة ايام رؤيا عجيبة تشير الى احوال غريبة وهو انه قادم عليك سبعة سنين منحوسة وايامها عليك معكوسة فاياك في هذه الايام ان تحارب احدا من ملوك الاقطار بل تجنب وقوع الفتن وتبقى مرتاح في الوطن ومتى نمت هذه الليالي ورافقك السعد والاقبال فان حاربت انتصرت وان ظفرت قهرت فشكره الزير على ذلك الاهتمام وغمره بجزيل الانعام ومن ذلك اليوم اخذ لنفسه الحذر وتجنب مخالطة البشر وكان يصرف ايامه بشرب المدام واكل الطعام واشتهر الخبر بالقبائل ان الزير اوقف الحرب سبعة سنين كوامل وكانت بنو مرة قد هامت في الاقطار خوفا من الهلاك والدمار وندم جساس غاية الندم على قتله كليب الاسد الغشمشم وما زال هو وقومه في خوف وحذر من عواقب الامور الى ان بلغهم خبر توقيف الحرب فزالت عن قلوبهم الهموم والاهوال ورجعوا الى الاطلال اما الزير فانه استمر على تلك الحال في ارغد عيش وانعم بال الى ان كانت السنة السادسة فركب الى الصيد في جماعة من فرسانه وابتعد عن الديار نحو ثلاثة ايام ومن الاتفاق الغريب ان الامير جساس راى

حلما في بعض الليالي وهو ان حوضا قرب صيوانه كانت قومه تشرب منه فاذا بذئب كاسر قد جاء الى الحوض وهو بصفة حمل كبير وله ثمانيــة انياب فشرب من الماء ثم ضرب الحوض بنابه فانشق من جانبه وتهور ذلك الماء حتى كادت قومه تهلك من شدة العطش والظمأ ثم رای النســوان والاولاد بثياب سود والدم جاري مثل السيل والمجاري والجمال تنهش بعضها البعض ودماءها تسيل على وجه الارض فاستيقظ جساس خائفا من هول ذلك المنام فاستدعى اخوته وبني الاعمام وقص عليهم ما راى وابصر فاستعظموا ذلك الامر وقالوا لا يوجد احد يقدر على تفسيره ســوى المنجمين فارسل اليه فحضر وقص عليه ذلك المنام فضرب الرمل ورسم الاشكال فبانت له حقائق الاحوال ثم التفت الى جساس ومن حضر هناك من الناس وقال لهم هذا المنام من العجائب وهو يدل على شر عظيم وخطب جسيم سوف يحل عليكم من سالم بوقت قصير وظهر لي ايضا ان اخــا المهلهل عنده مهر ادهم اسمه عدم قوي العصب والخيل عديم المثال فــي الخيل فسعد الزير مقرون بهذا الحصان وبه ينتصر في الحرب والطعان فاذا ملكتم هذا الجواد تلتم المــراد واسرتموه في القتال والطراد فلما سمع جساس هذا الكلام استبشر ببلوغ المرام وقال لهم قد بلغنا بأن الزير غائب عن القبيلة وما في الحي غير النساء والحصان موجود في الخيام وهذه اوقات الفرصة وازالة الغصة ثم ارسل رجلا ليكشف الخبر فــار ثم رجع واخبره بصحة الكلام فركب جساس في ثلاثة الاف بطل وطــرق ديار المهلهل على عجل واحاط بساحة الدار من اليمين الى اليســار فاستعظمت بنات كليب ذلك الامر ولم يعلمن السبب فطلت اليمامة رأسها من الشباك وقالت له وهو راكب على ظهر الفرس ما الداعي يا خالـــي اقدومك الينا بالابطال والحي خالي من الرجال فقال جينا نطلب المهر الادهم المدعو بعدم فقالت اهلا وسهلا فيك ومهما طلبت فلا تمسكه عنك غير ان المهر لا خفاك هو خاصة في عدته فلا يمكننا ان نسمح فيه ثم اشارت تقول:

لقد قالت يمامة في بيــوت	الا يا مرحبا فيكــم خوالــي
الا يا مرحبا فيكــم جميعا	عداد القطر مع عــد الرمالي .
بكم قد حلت البركة علينــا	وزال الشر عنا مــع نكالي
فمهما تطلبوا منــي تشوفوا	خيولا مــع بغال مع جمالــي
ولكن مهر عمي غيــر ممكـن	اسلمه فان المهــر غالـــي

قال الراوي فلما سمع جساس شعرها ونظامها اجابها برد على كلامها:

تعالوا اسمعوا قول اليمامة | تقول المهر لا اعطيه غالي
فاني قاصدا اخذه سريعا | ولا اخشى العداة ولا ابالي

ثم نزل عن ظهر الفرس ودخل الى الاصطبل فوجد المهر فوضع عليه العدة وركبه وقال لليمامة قد اخذت الحصان وغدا اطاردكم على ظهره ثم سار وهو فرحان حتى وصل الى الاوطان فقال لاخوته قد اتيت بالحصان ومرادي ان اجربه بالميدان فانتخبوا ثلاثين راسا من الخيل الصوافن فاركبوهم في عشر مكامن وانا اسري عليكم اسرع من الريح وتبعوني في البر الفسيح فان سبق هذا الجواد بلغنا منه المراد في الحرب والطراد فأجابوه الى ما طلب واراد وركبوا الخيول الجياد وركب سلطان اخو جساس القميرة ووقف في اخر كمين وركب جساس المهر واطلق له العنان فسار به في تلك القفار اسرع من الطير اذا طار ولما اقترب من الخيل تبعته فسبقها جميعها ما عدا القميرة ففرح جساس ثم نزل عن ظهره وامر للعبد ان يربطه قرب صيوانه ووكل به مائة عبد وقال لقد اقبل علينا السعد وسوف نقتل ذلك الوغد اما الزير فانه رجع من الصيد ودخل الاصطبل واستفقد ذلك الحصان فلم يجده مع الخيل فصعد الى القصر وسأل اليمامة واشار يقول :

يقول الزير ابو ليلى المهلهل | بدمع قد جرى مني بداد
يمامة رحت انا للصيد قانص | وقومي واخوتي ثم الجياد
لنا عشرون يوما في فلاة | ودرنا من بلاد الى بلاد
وصدنا الطير مع وحش كبير | وردينا ورجعنا للبلاد
وجيت لمهر اخي ما لقيته | شرد عقلي وعني عاد غادي
فاين المهر قوطر يا يمامة | عدم صبري وفارقني رشادي
امات المهر ام احد سباه | من الاوباش والناس الاعادي

فلما سمعت اليمامة شعر عمها اجابته بقولها :

تقول اليمامة يا عم اسمع | الا يا عم جاؤونا الاعادي
اتى جساس اخذه غصب عنا | انا حرمة ومالي من جلادي
فقلت لا تأخذه يا خال تندم | يجوك غدا على خيال جيادي

فلما فرغت من شعرها ونظامها اجابها الزير قائلا :

يقول الزير قهار الاعادي انا السبع الجسور بكل وادي
غدا لا بد امشي للقاهم واحصد جمعهم يوم الجلاد
وآخذ ثارنا من آل بكر واطفي النار من طي الفؤاد

فلما فرغ الزير من شعره دخل وجلس في الديوان وجمع اخوته والامراء والاعيان واخبرهم بواقعة الحال وقال لهم ما رايكم في استجلاب الحصان فقالوا له الراي رايك ونحن طوع يديك قال لهم الزير اركبوا غدا في ثلاثة الاف فارس واكمنوا في وادي الهجين وانا اكمن في وادي المعلا وكان هذا المكان يبعد عن بني مرة ميل ثم قال لاخيه عديه وانت قم الان وغير ثيابك وزيك والبس ثياب ممزقة حتى لا يعود يعرفك ثم اذهب لحي بني مرة واجلس بقرب صيوان جساس فاذا سالوك عن بلادك ومهنتك فقل لهم اني من بلاد الصعيد ومهنتي سياسة الخيل وانا قد بلغني ان جساس من محبته بالحصان كل يوم يسلمه الى سايس فاذا قالوا لك هل تريد ان تخدم عندنا وتسوس هذا المهر فقل نعم حتى اذا تمكنت منه تركب على ظهره وتلحقنا الى ذلك المكان فمتى صرت هناك لا تخف ولا تحسب لهم حساب واو كانوا بعدد التراب فاني سأبيد جمعهم بعون رب العالمين وآخذ ثارنا من جساس فاستصوب عديه رأيه ولبس ثياب ممزقة وتعمم بعمامة والتف بحزام عتيق وغير زيه وتنكر وسار يقطع البر الاقفر الى ان دخل حي بني مرة فقصد صيوان جساس وكان قد اقبل الليل فرقد بين اطناب الخيام ولما كان الصباح جلس الامير جساس واجتمع حوله اكابر الاعيان ثم وضعوا موائد الطعام واخذوا يتذاكرون بالكلام فبينما هم كذلك اذ حانت من جساس التفاتة فراى عديه في تلك الصفات فشفق عليه وقال لبعض غلمانه اطعم هذا الفقير واسأله عن حاجته فأخذ له الغلام صحن الطعام وسأله عن بلاده فقال انني من بلاد الصعيد ومهنتي سياسة خيل الاجاويد وقد جار علي الزمان فأتيت قاصدا اهل الفضل والاحسان الى ان وصلت لهذا المكان فطيب الغلام خاطره واعلم مولاه بحاله فقال جساس اذا كان من بلاد الصعيد فهو ادرى بسياسة الخيل من العبيد فدعوه يسوس لنا المهر الجديد وانا اعطيه كل ما يريد وان وجدته من الماهرين سلمته جميع خيلي وجعلته رئيس اصطبلي فلما قال له الغلام هذا دعا لجساس بطول العمر ثم انه تحزم وتقدم الى المهر ففك قيود رجليه وقبله بين عينيه وقال له هذا يومك يا جوادي فقد بلغت الان مرادي وكان المهر لما راى صاحبه عرفه فمال اليه وآلفه فتعجب جساس وباقي الناس لان الجواد كان لا يألف احدا من العبيد الموكلين عليه وكان كل من قاربه ضربه بيده ورجله

فقال جساس وحق رب الانام ان هذا السايس يستحق الاكرام والانعام وكان عديه لما تمكن من المهر ركب على ظهره ثم لكزه برجليه وصاح بين أذنيه فسار به مثل ريح الهبوب وجد في قطع البطاح كانه طير بلا جناح فلما راى جساس تلك الحالة تغيرت منه الاحوال وعلم انها حيلة قد تمت عليه ولطم على خده ووجهه وصاح على الابطال والفرسان وقال دونكم هذا الشيطان فقد احتال علينا بالمقال وخدعنا بالمكر والاحتيال حتى نال طلبه وبلغ قصده واربه فركبت الفرسان الخيول واعتقلوا السيوف والنصول وتبعوه في تلك السهول وهم يصيحون وراه ويجدون في قطع الفلاة الى ان وصل الى ذلك الوادي والغدير فوجد اخاه الزير وهو كامن هناك في جماعة من الابطال وصناديد الرجال فأعلمه بواقعة الحال وقال خذ حذرك الان فقد اتتك الفرسان من كل جانب ومكان فتبسم المهلهل وقال سوف ترى بما افعل ثم انه نزل عن ظهر حصانه وأعطاه لاخيه واخذ المهلهل الادهم ووضع عليه العدة ثم ركب وتلملم واذا بالخيل والمواكب قد احاطت به من كل جانب فصاح عليهم وحمل بقلب اقوى من الجبل ومال عليهم بالحسام كأنه الليث فطير الرؤوس عن الابدان وفتك فيهم فتك الذئاب بالاغنام وفي اقل من ساعة ادركته باقي الرجال الكامنين في وادي الهجين فانصبوا عليهم كالشواهين من الشمال واليمين وكان قد وصل الخبر الى جساس فأخذه القلق والوسواس فركب بباقي الابطال ومن يعتمد عليهم من الرجال وقصد ذلك المكان وقاتل قتال الشجعان والتقت الرجال بالرجال والابطال بالابطال وجرى الدم وسال وكثر القيل والقال وتزلزلت الارض من هول القتال وكانت وقعة عظيمة لم يسمع بمثلها في الايام القديمة انهزم فيها جساس اقبح هزيمة وغنم المهلهل غنيمة جسيمة لها قدر وقيمة ورجع الى الديار بالعز والانتصار فالتقته النساء بالدفوف والمزاهر ثم طلع الى القصر وهو منشرح الصدر فشكرته بنات اخيه على ما فعل قائلات لله درك من بطل فقد اخذت الثار وطفيت من القلوب لهيب النار فالله يحفظك ويبقيك وينصرك على حسادك واعاديك فشكرهن على ذلك الكلام وبعد ان خلع ثيابه جلس للطعام وشرب المدام ثم دخلت عليه امه وقبلته بين عينيه وهنأته بذلك الانتصار وطلبت منه ان يرفع عن بني مرة السيف البتار فاستقبلها بالوقار والاعتبار وقال لها والله اني لا اصالحهم يا أماه حتى يعود كليب الى قيد الحياة ثم تذكر تلك الواقعة وما جرى له مع القوم فأنشد :

يقول الزير ابو ليلى المهلهل	وقلب الزير قاسي ما يلينا
وان لان الحديد ما لان قلبي	وقلبي من حديد القاسيينا

تريدي يا اميمة ان اصالح ... وما تدري بما فعلوه فينا
فسبع سنين قد مرت علي ... ابيت الليل مغموما حزينا
ابات الليل انعي في كليب ... اقول لعله يأتي الينا
كان كايب في روس المعلا ... تغشاه الذئاب الجائعينا
اتتني بناته تبكيه وتنعي ... تقول اليوم صرنا حائرينا
فقد غابت عيون اخيك عنا ... وخلانا يتامى قاصرينا
سللت السيف في وجه اليمامة ... فقالت لي امام الحاضرينا
فانت اليوم يا عمي مكانه ... انا عمك حماة الخائفينا
وقلت لها لك البشرى يمامة ... اقلبهم شمالا مع يمينا
كمثل السبع في صدمات قوم ... وليس لنا غيرك معينا
فدوسي يا يمامة فوق راسي ... على شاشي اذا كنا نسينا
فان دارت رحانا مع رحاهم ... طحناهم وكنا الطاحنينا
اقاتلهم على ظهر المطهم ... ابو حجلان مطلوق اليمينا
فشدي يا يمامة مهري شدي ... واكسي ظهره السرج المتينا
وهاتي حربتي رطلين وازود ... وحطيها على عدد مكينا
ونادي لي عدية وكل قومي ... صناديد الحروب المانعينا
ونادوا اخوتي يأتوا سريعا ... لنلقي جيش بكر اجمعينا
فنادتهم اتوا كأسود غاب ... وقالوا قد اتينا يا اخينا
وباتوا يحرسون الليل كله ... وقضوا الليل حقا ساهرينا

قال الراوي فلما فرغ الزير من شعره ونظامه شكره الجميع على مقاله وباتوا تلك الليلة في سرور وافراح الى ان اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح امر الزير بالاستعداد للحرب وركب ظهر الجواد فتبعه الفرسان والقواد وقصدوا بني مرة بقلوب قوية وهمم عالية فالتقاهم جساس مع اخوته واهله وعشيرته واشتبك بينهم القتال وعظمت الاهوال وابتلت بني مرة بالبلا والويل وكان الزير يحصد فيهم النهار والليل واستمر القتال بين الفريقين سنتين حتى فقد من بني مرة في هذه الحرب نحو اثني عشر الف امير عدا عن السادات والاكابر والجيوش والعساكر وكان الزير يأمر قومه بقطع الرؤوس ووضعها في المخازن لانه كان اقسم بالله انه سيملي البيوت والاماكن من جماجمهم فلما طال المطال واشتدت على بني بكر الاهوال اجتمعت اكابر الناس مع الامير جساس واخذوا يتفاوضون كيف يتخلصون من حرب الزيربلان الزير لا يقبل منهم فدى وجميع وسائطهم التي استعملوها في توقيف الحرب راحت سدى فقال سلطان لاخيه جساس اعلم يا اخي بأن الزير في كل صباح يمر على قبر اخيه كليب فيحييه بالسلام ويقول له قتلت في ثارك فلان وفلان فهل اكتفيت ام لا فلا يرد عليه

احد فالراي عندي ان تنتخبوا رجلا وتضعوه داخل القبة بحيث لا يراه احد فاذا مر الزير على القبر حسب عادته وسال اخاه ذلك السؤال فيجيبـه الرجل بصوت خفيف من قلب ضعيف لقد اكتفيت يا اخي فاغمد سيفك من هذا اليوم عن قتال القوم واياك اذية البشر فانه مما يجلب علي الضرر فاذا سمع هذا الكلام فلربما ينطلي عليه المحال فيكف عن الحرب والقتال فنستريح من القيل والقال فاستصوب جساس وباقي الاعيان راي الامير سلطان وكان في القبيلة رجل فقير الحال فاستدعاه جساس وافهمه ما يعمل وقال اذا اجبتنا الى الطلب وبلغنا الارب اعطيتك مهما تريد من المال والعبيد فقال الاجرة مليحة ولكن الطريقة قبيحة فاخذ جساس يحثه بالكلام ويرغبه في هذا الشعر والنظام :

على ما قال جساس بن مـرة   الا يا فارغ الاشغال اسمـع
فلي عندك حاجـة صغـيرة   فقضيها سريعا ثـم ترجع
فان الزير لاشانـا جميعـا   وفرق جمعنا في كل موضع
ولا يقبل رجانـا او عطانـا   واعدم في الوغا كل ليث اروع
بثأر كليب قد صرنا شرايـد   وعن افعاله ما كان يرجـع
يمر على قبره في كل صباح   ويزعق صوت للاكباد يصدع
يقول الا نعمت اخي صباحا   ايكفي ما قتلت ازيد او ارجع
فاذهب واختي في القبر حالا   اذا صاح المهلهل انت تسمع
اذا سألك احارب او اصالح   اجيبه انت يا محفوظ ارجع
اني رضيت منك ونلت ثأري   وانت تقتلهم لا عدت تطمع
لعله يظن انك انت اخيـه   فيصفح عن مآثمنا ويرجع

فلما فرغ جساس من نظمه قال له الفقير على الراس والعين وفـي الليل حفروا سردابا اوصلوه الى القبر ثم ادخلوا الرجل فيه وفي الصباح ركب الزير ظهر الحصان وتبعته الابطال والفرسان ومر على قبر اخيـه حسب عادته ونادى بصوت عال نعمت صباحا يا اخي يا كليب قد قتلت في ثارك نهار امس خمسة الاف فارس ايكفي ما قتلت ام ارجع اليهـم افنيهم عن بكرة ابيهم فأجابه ذلك الرجل من القبر بصوت خفيف وانت انعمت صباحا يا اخي الحنون يا ساقي الضد كاسات المنون كف عن الحرب فقد اكتفيت واشتفيت وان قاتلتهم بعد اليوم تكـون قد تعديت وبغيت فتزيدني ضررا وغما وكدرا فان نفسي قد بلغت مناها ونالت مشتهاهـا فكثرت خيراتك وزادت في الدنيا مسراتك فلما سمع الزير هذا الكلام زالت اتراحه وزاد فرحه وانشراحه وقال سبحان من يحيي العظام وهي رميـم

انت يا اخي بخير ونحن بعدك نقاسي الضنك والضير ثم نزل عن ظهـــر الحصان ودخل الى القبر وهو فرحان وقال اذا كنت بخير يا ابا اليمامة فما هذه السكنة والاقامة بعد العز والكرامة فقم الى عند بناتك فانهن في حزن وكدر ثم تقدم اليه وتأمل فيه بالنظر فرآه انه ذلك الرجل المعهــود فغاب المهلهل عن الوجود وجذبه من لحيته واخرجه من السرداب وقال له اصدقني بالخطاب فمن انت ومن تكون قبل ان تشرب كاس المنون فاعلمه بواقعة الحال وحقيقة الاعمال فسل السيف ليقتله وقد اغاظه فعله فقال انا بجيرة كليب اخيك فلا كان من يعاديك وقد غرني جهلي مع قلة عقلي حتى جرى ما جرى يا فخر الورى فلما سمع الزير كلامه تبسم وصفح عنه واعطاه جوادا من اطيب خيول العرب والف دينار من الذهب فدعا له بطول العمر وخرج من القبر وهو يقول والله ان الامير كليب يحمي الخائف في مماته كما كان يحميه في ايام حياته ثم رجع الزير الى القبيلة وهو يتعجب من تلك الحيلة وفي الغد ركب في فرقة من الابطال وقصد بني مـــرة واشتبك بينهم القتال وعظمت الاهوال وما زالوا في قتال وصدام مـــدة عشرة ايام فانكسرت بنو مرة اشد انكسار وقتل الزير مقتلة عظيمة وكان يأتي براس سادات الجماعة فيضعها على قبر كليب مدة ساعة ثم يدفنها تحت الثرى ويبني فوقها القصور وكان كلما اقبل من الحرب تقابله اليمامة مع النساء فتقول يا سيد الناس هل اتيت براس خالنا حتى نخلع السواد ويطيب الفؤاد فيقول لها كوني براحة بال فسوف تبلغين الآمال باذن الله المتعـــال .

قال الراوي هذا ما كان من المهلهل واما جساس فانه قد استقتل ولما ضاقت به الحيل اجتمع مع اهله وعشيرته وعقدوا بينهم ديوانا فاستقـر رأيهم ان يذهبوا الى الحبشة والسودان يستنجدوا بالملك الرعيني ابن اخت التبع حسان فركب مع اخوته واكابر عشيرته واخذ معه اخته الجليلة لتشفع لهم عند حريم الملك الرعيني وبقي اخوه شاويش في الحي وكان هذا يحب الزير من ايام صباه فعند رحيل جساس اتى شاويش الى الزير واعلمه بما جرى وكان من مسير اخوته الى عند ملك الحبشة والسودان فاعطاه الزير الامان وقال له اني ما عدت احاربكم من الان حتى تحضر اخوتك الـــى الاوطان بالابطال والفرسان وتوقف الزير عن محاربتهم وصار يصرف اوقاته بالصيد والقنص واما جساس فانه كان قد جد في قطع القفار حتى وصل الى بلاد الحبشة ودخل على الملك الرعيني وقبل قدميه واعلمه بحالتهـــم

الحاضرة وطلب منه النجدة على حرب الزير وذكر له ايضا بأن كليب قتل خاله التبع حسان وهو قتل كليب بقتله وقام اخوه الزير فحاربهم حتى كاد يفنيهم فلما سمع الرعيني هذا الكلام قال لقد بلغت اليوم منكم المرام ولا بد من ذبحكم بحد الحسام لانكم من قوم لئام قتلتم خالي واتيتم تستجيرون بي ثم امر بالقبض عليهم وكانت الجليلة واقفة على باب الصيوان وهي مثل الطاووس ولابسة افخر الملبوس كانها العروس فلما شاهدت ما جرى على قومها خافت من العواقب فشقت المواكب وتمثلت امام الرعيني فقبلت اياديه ودعت له بطول العمر فلما رآها الرعيني تعجب من فرط حسنها فمال قلبه اليها ووقع في شرك هواها فقال من تكونين يا مهيجة الفؤاد وبغية المراد فقالت انا اخت القوم الذي امرت بقبضهم بدون ذنب ثم اشارت تقول :

مقالات الجليلة بنت مرة ... ايا ابو فهد اصحى دير بالك
وانظر يا سياج البيض فينا ... وانظر الذي وقفوا قبالك
انا قصدتك يا ملك البوادي ... يا من بالملا شاعت فعالك
ملوك الارض كنا يا مسمى ... فانت نظيرنا ونحن مثالك
فالذي جرى كله مقدر ... ايا فخر الورى من قتل خالك
قتل خالك كليب في حسامه ... وقام اخي الذي وقف قبالك
قتل لكليب عن خالك بسيفه ... كرامة خاطرك واصفى لبالك
ظهر لكليب اخ اسمه المهلهل ... حرمنا النوم زاد الله مالك
قتل منا اماجيد كثيرة ... اتينا واقعين على ديالك
فهذا اليوم يومك يا مسمى ... فدق الطبل واركب في رجالك
وسر معنا الى الزير المهلهل ... فاقتله ودوسه في نعالك
واحكم سائر العربان تغنم ... وكل اموالهم تبقى حلالك
ولا تشمت العدا يا امير فينا ... اتينا الك وصرنا من عيالك
وانت صميدع شهم كريم ... جميع الخلق تفزع من خيالك

فلما فرغت الجليلة نظامها وفهم الرعيني قصدها ومرامها ثارت في راسه الحمية وقال قد فهمت قولك يا صبية ثم انشد يقول :

قال الرعيني ابو فهد قال ... الا يا جليلة اسمعي مقال
وانتم افهموا قولي يا ملوك ... اولاد مرة ترون الهم زال
اتيتم تلتجوا فينا جميعا ... وقعتم علينا وقع العيال
من جور الزير يا اهل الكرام ... دهاكم ضناكم رماكم بحيال
فوحياة راسي ورحمة ابي ... ومن خلق الارض وارسى الجبال

لاركب عليه بكل فحول
واجرد عساكر شبه الرمال
واقتل عداكم بحد السيف
وانا ادع الزير في اسوأ حال
جليلة طيبي انت وابشري
انا فدا اخوك تحت النضال
ابا اخي غطاس انهض الان
واجمع الفوارس والابطال
نادي على الجيش ان يركبوا
ويلبسوا الزرد والسيوف الصقال
ودقوا الطبول وشدوا الخيول
وامشوا الفجر شبه الفيال
فدعنا نسير نزيل المسير
عن اولاد مرة هذا النكال

قال الراوي فلما فرغ الرعيني من كلامه نهض اخوه غطاس والزير وجمعوا الابطال والفرسان من عساكر السودان ونادى المنادي ان السفر يكون بعد ثلاثة ايام ولما تجهزت العساكر للمسير لحرب الزير كان عددهم ستمائة بطل ففرح جساس ومن معه من الناس لما راوا تلك السهول امتلأت بالخيول وفي اليوم الثالث دقت الطبول ولمعت النصول وسارت العساكر كالبحور الزواخر وفي اوائلها الملك الرعيني واكابر دولته وجساس وباقي الناس وما زالوا يقطعون البراري والآكام حتى وصلوا بلاد الشام فأرسل جساس يعلم قومه بقدوم هذه العساكر ويهيئوا لهم الاطعمة والذخر فلما سمعوا هذا الخبر فرحوا فرحا عظيما وهيئوا لهم ما يحتاجون اليه من الطعام والمدام وخرجت النساء والرجال للقائهم فلما وصلوا الى الديار نزلوا في المضارب والخيام وقد تباشر قوم جساس بالنجاح والظفر وبلوغ الوطر كل هذا يجري والزير ليس عنده خبر في شيء من هذه الامور بل كان مواظبا على السرور والخمور فبينما هو كذلك اذ دخل عليه اخوه عدي وقال له انت جالس في صفاك ولا تدري بما دهاك من اعداك وأشار ينشد قائلا :

لقد قال الفتى المدعو عديا
ودمع العين فوق الخد ساجم
اراك اليوم في زهو ولهو
تنبه يا اخي ان كنت نايم
فقم وانظر الى ما سوف يجري
من الاعداء يا ابن الاكارم
اتونا قوم مرة بالرعيني
ملك جبار بالاحكام ظالم
لقد ذهبوا اليه يا مهلهل
فجاء بست كرات عوالم
بهم من كل قوم ليث اروع
وهو بينهم مثل الصقر حائم
تبدي الزير حالا ثم قله
تخاف من العدا واخوك سالم
انا وحدي الاقيهم بعزمي
انا الدعاس في يوم الزحايم
واني سوف افتك بالرعيني
واقطع راسه والله عالم
وافني جيشه مع جيش مرة
انا المقدام ما بين العوالم

قال الراوي فلما فرغ الزير من نظامه وفهمت قومه فحوى كلامه تعجبوا من هذا المقال وشكروه على هذه الفعال واخذوا يستعدون للحرب والطعان واما الزير فغير زيه وتنكر حتى لم يعد يعرفه احد من البشر وجعل نفسه كأحد شعراء العرب الذين يقصدون الامراء وارباب المناصب طمعا بالفضة والذهب ثم ركب الحصان وتقلد بالحسام تحت الثياب واخذ معه بعض العبيد والغلمان وسار الى قبيلة مرة ولم يعلم به انسان ولما اقترب من الحلة نزل عن ظهر الجواد وسلمه للغلام وقصد المضارب والخيام حتى وصل الى صيوان الرعيني فوجده جالسا وحده فسلم عليه ودخل وتمثل بين يديه فلما رآه الرعيني في ذلك المنظر خاف واذعر وسأله عن مهنته فقال انني شاعر اطوف على الامراء والاكابر فأحصل منهم على الانعام ومزيد الاكرام وقد سمعت انك في بني مرة فأتيت قاصدك من مدينة البصرة الى ان تشرفت بطلعتك وتمثلت امام حضرتك وكان للرعيني زوجة تدعى بدر وكانت واقفة خلف الستار فسمعت ما دار بينهما فأرسلت تقول للملك ان يامر الشاعر بالانشاد فقال الملك انشد يا شاعرُ فأنشد يقول :

قال الاديب الذي طالب احسانك ... جرحي بوسط الحشا انقلب نزار
يا بو فهد رعيني استمع ما اقول ... يا من قلوب العدا بالروع هزار
قد كنت في خير وفي نعيم ... مستور ما بين اهلي ما انا معتاز
فصرت شاعر علىالاجواد اقصدهم ... طوي لارضي ماشي على عكاز
قالوا فسر للرعيني مقصد الشعراء ... فذاك جواد يعطي عطا ممتاز
فجئت طالبا احسانك واكرامك ... يا من حويت المكارم بكل اعزاز

قال الراوي فلما فرغ الزير من كلامه امر الملك الخازندار ان يعطيه الف دينار فعند ذلك سل الزير سيفه الابتر اسرع من لمح البصر وضرب الرعيني على عاتقه خرج يلمع من علائقه ثم مال على الطواشية والخدام بضرب الحسام وبعد ذلك هجم على الخيام كسبع الاجام فقتل الرجال ومدد الابطال فوقع في السودان الضجيج والصياح والعويل والنواح فخرجت ابطال الرعيني من المضارب وركبوا ظهور النجائب فتقلدوا بالسيوف وهجموا على بني مرة صفوف صفوف ، وهم لم يعلموا سبب ذلك غير انهم ظنوا ان بني مرة خدعوهم حتى اتوا الى بلادهم فقتلوا منكهم وغدروا بهم فلما راى جساس ما حل بقومه من السودان استعظم ذلك الشأن فركب جواده وتبعته اجناده واضطر ان يدافع عن نفسه ويحامي

عن ابناء جنسه فقاتل تلك الليلة حتى استقتل وفعلت اجناده مثلما فعل وكانت ليلة مهولة كثر فيها القتال والجراح الى الصباح ولما فرغ المهلهل من القصد بهذا العمل ارسل عبده في الحال الى الاطلال في طلب الفرسان والابطال فحضروا عند طلوع النهار واحاطوا بالاعادي من اليمين واليسار وحكموا فيهم ضرب السيف البتار واستمر الحرب والصدام بين القوم ثلاثة ايام حتى ابلاهم المهلهل بالويل والدمار وقتل منهم كل بطل مغوار واسد كرار وكان من جملة المقتولين الامير غطاس قائد جيش السودان فلما رات السودان ما حل بها من الهوان ولت الادبار واوسعت في جوانب القفار وكذلك انهزم جساس ومن تبعه من الناس وتفرقوا في الفلاة وهم يقصدون النجاة ورجع الزير مع قومه التغلبيين غانمين ظافرين فدخل القصر بالعز والنصر وصحبته اكابر القواد الذين عليهم الاعتماد وهم يثنون على المهلهل ويقولون لا عدمنا طلعتك ايها الفارس المنتخب فبسيفك انتصرنا ونلنا المراد وقهرنا الاعادي والحساد فلا زالت ايامك في سعود وعدوك مقهور مكمود ثم انهم اكلوا الطعام وشربوا المدام وباتوا في تلك الليلة في سرور وافراح اما الامير جساس فانه بات في قلق ووسواس وندم على ما فعل وقطعمن سلامته الامل ولاسيما عندما بلغته الاخبار بأن ذلك الاختلاف الذي جرى عليهم في الليل والنهار كان بفضل حيلة المهلهل الاسد الكرار فزاد همه وعظم حزنه وغمه فكان يطلب من قبائل العرب المساعدة على حرب بني تغلب فانضمت اليه عدة قبائل برسم المساعدة وصاروا جميعا يدا واحدة وكذلك انضم مع الزير عدة قبائل مشاهير حتى لم يبق في بلاد العرب قبيلة الا وقد انضمت مع بني بكر او تغلب . ومن غريب الاتفاق المستحق التسطير في الاوراق ان الامير المهلهل خرج ذات يوم في عشرة الاف بطل ومعه الامير كنيف وكان من أشراف تغلب وفرسانه الغطاريف وتبطن في جوانب القفر ليجس احوال بني بكر فمر بقبيلة من القبائل يقال لها بني تميم وهم فرع من تغلب وكانت هذه القبيلة ذات خيرات جزيلة واجتمع المهلهل بسيدها الامير عمر وقال له اركبوا معنا لقتال بني بكر فأبى وقال لا تحارب من لم يحاربنا من العربان فقال المهلهل اما شملتكم الحرب لحد الان فقالوا لا يا فارس الميدان فقال فوحق الاله الخالق ما كنت اظن الا انها شملت كل من في المغارب والمشارق وما دام الامر كذلك يا وجوه العرب تنحوا عن منازلكم خوفا من العطب واقصدوا غير هذه الديار لان مرادنا ان نقاتلهم تحت جنح الظلام فان حاربناهم لا تأمنون على انفسكم من شرهم واذاهم لانكم فرع من قبيلة بني تغلب فينتقمون منكم لهذا السبب

فقالوا ما علينا من بأس فانهم يحاربون من يتعرض لهم من الناس فاغتاظ المهلهل من هذا الكلام وكان عليه اشد من ضرب الحسام فتركهم وسار على الاثر بمن معه من العسكر وجد في قطع القفار فالتقى بقوم من بني بكر في ذلك الجوار فكبسهم تحت جنح ظلام الليل وابلاهم بالذل والويل فسلب اموالهم وقتل رجالهم واخذ رؤوس ساداتهم العظام ورجع في الظلام وطرح الرؤوس بين خيام القوم المعتزلين من بني تميم المذكورين وكانوا راقدين ثم تركهم وارتحل وسار على عجل فلما استيقظت بنو تميم من النوم ورأت الرؤوس بين اطناب الخيام فأيقنوا انها مكيدة من المهلهل فزاد بهم الخوف والوجل وعلموا ان العدو لا بد ان لا يتمهل بذلك العمل فنهضوا وارتحلوا من اطلالهم بمواشيهم واموالهم وانضموا الى قبيلة تغلب والتجوا بالمهلهل فارس العرب والعجم فلم يبق قبيلة من قبائل العربان في ذلك الزمان الا شملتها الحرب والهوان .

قال الراوي ولما عظم الامر على جساس وضاقت منه الانفاس قصد العابد نعمان فوقع عليه وشكا حاله اليه وبكى بين يديه وطلب منه ان يسير بالعجل ويقصد الامير المهلهل ويطلب منه كف الحرب والطعان مدة من الزمان لحينما ترتاح النفوس والقلوب من هول تلك الحروب التي اهلكت الرجال ورملت النساء ويتمت الاطفال فلما سمع قوله رق له وسار الى عند المهلهل في الحال وطلب منه ان يكف عن القتال ولو كان برهة قصيرة ومدة يسيرة وذلك لراحة القبيلتين وخير للفريقين فأجابه الى ذلك المرام لانه كان يحبه دون باقي الانام وامر بتوقيف الحرب عن القوم من ذلك اليوم واشتغل المهلهل في تلك الايام بالملاهي وشرب المدام واكل الطعام وسماع الاصوات والانغام ومغازلة النساء في الصباح والمساء وكان جساس يترقب على المهلهل الفرص ليقتله ويزيل ما بقلبه من الغصص فبلغه في بعض الايام بأن الزير طريح الفراش في الخيام من كثرة شرب المدام وان اخوته قد خرجوا للصيد ولا يرجعوا الا بعد ثلاثة ايام فجمع اخوته واتفق رأيهم انهم بعد غروب الشمس يركب اخوهم سلطان في جماعة من الفرسان ويكبس سالم الزير على حين غفلة ولما كان الليل ركب سلطان في ثلاثة الاف بطل وقصد حي المهلهل ولما صار هناك هجم على الحي ودخل عليه وهو راقد في الخيمة سكران فأحاطت به الفرسان وقبضوا عليه واوثقوه كتافا ثم نزلوا عليه بالسيوف الى ان اثخنوه بالجراح وكان دمه يسيل كالمطر فظنوه قد مات فزادت افراحهم وزالت اتراحهم وقالوا لقد بلغنا الارب ورفعنا الحرب عن العرب ثم وضعوه في جلد جاموس واخذوه الى عند اخته ضباع

وقالوا لها قد اتيناك بقاتل ولدك فخذيه واشفي منه غليل كبدك فيا ما قتل ويتم ورمل فما هان عليها ذلك الامر لكنها اظهرت السرور والفرح وقالت ان جزاء الغدار الحرق بالنار ثم تركوها وساروا واما هي فقد احتارت في امرها وزادت احزانها عليه لانه وان قتل ولدها فانه شد للقبيلة ذكـــرا حسنا لا يبور على ممر الدهور ونظرت اليه نظرة الوداع واذا به يتحرك ثم انه طلب عبده شهوان وهو يظن انه في ذلك المكان فقالت له ضباع قـد انتقموا منك اعداك فاصحى لقد ذقت الموت والهلاك فلما صحي انشد :

قال الزير ابو ليلى المهلهـل ... ونار الحزن توقد فـي حشاه
فكان كليب ملـك البرايـا ... اتى جساس غدره بالفـلاه
جلست مكانـه آخذ لثأره ... وكنت انعيه صباحا مع مساه
فقال الشيخ كف الرب عاجل ... ولا تنقل السيف ولا قنـاه
جلست بخيمتي والدن جنبي ... وعندي العبد ما عندي سواه
وقومي كلهم للصيد راحـوا ... فعرفوا القوم مع باقي العداه
اتوني والمقدار كان كائـن ... وصار فيا مثـل ما نـراه
اتوني لعنـدك يا اخت حتى ... تنالي الثأر يا غاية منـاه
اتركيني يا ضباع او اقتليني ... انا اخـوك اذا احتبك القناه
فأنتي تشبهي اللبوات حقا ... واني مشبـه سبـع الفلاه
فالقينـي بصنـدوق مذفت ... وارميني ببحـر فـي ميـاه
ابا اسما افعلي انت باصلك ... ربيعـة بيننا مـا في غبـاه

قال الراوي فلما فرغ الزير من كلامه غاب عن الصواب وصار في صفة مفقود وكانت ضباع لما سمعت من اخيها هذا الكلام صار الضياء في عينها ظلام جاءت بصندوق كبير ووضعت فيه سالم الزير وزفتته بالقير وكان عندها عبدان فأمرتهما ان يحملا ذلك الصندوق ويلقياه في البحر فحملاه وسارت معهما تحت جنح الظلام الى ان وصلوا الى شاطىء البحر فطرحاه فتقاذفته الامواج حتى غاب عن الانظار فبكت ضباع على اخيها ورجعت تنوح من فؤاد مقروح وهي تقول يا ليتني كنت فداك فقد احرقت قلبي بفراقك يا جميل المحافل وفخر الاوائل والاواخر ثم انشدت هذه الابيات :

تقول ضباع من قلب حزين ... ابا عيني فزيـدي في بكاها
كواني البين في اول زمانـي ... رماني الدهر في اعظم بلاها
ابا عيني زيدي في سخاكي ... على محزونة فقدت اخاهـا
لقد فاق الملـوك في علاهـا ... ومن اعلا ملوك الارض جاها
وجساس الذي افنى كليبـا ... طعنه طعنة برمحه في قفاها

ترك دمه على الارض فايـــر
بحرية مسمة من السم سقاها

وقام الزير كي يأخذ بشـــاره
فقاتل آل مرة حتى هفاهــا

لقد قتلـــه جساس بغـــدر
اثني عشر الف حمالة قناهــا

فقال خذيه لأختـــه الحزينة
لتأخذ ثار ولدها من اخاهــا

نحطيته في صندوق مقفــل
ومن بني ما يعلم حداهـــا

وقلت له روح يا جمل المحامل
ابا عود بيتي فـــي انجناهــا

فأنت ملاذنا يا فخر قومـك
ابا حطاط للجائـع عشاهـــا

ابا يوما اخذه الموج عاجــل
وموج البحر يلطم في مداهــا

فقلت له روح يا سبع غـاب
بيوم الحرب ما تعطي قفاها

وهذا صار في عهد الجليلـة
اله العرش يعدمها صباهـــا

فسر يا ريح واخبر اليمامـة
لتصبح ثـم تمسي في بكاها

ثم رجعت الى الحي وصبرت حتى اتت اخوتها وبنو عمها من الصيد فأعلمتهم بتلك المصيبة وما حل بالزير وقالت والله انكم بعد المهلهل تتبعون مع جساس فتأسفوا عليه وبكوا من فؤاد موجوع ثم ان ضباع كتمت مـــا فعلت بأخيها وشاع انها احرقته بالنار واخذت الثار ولما شاع الخبر وانتشر بين الناس فرحت بنو مرة وجساس واما اخوة الزير فانهم شقوا ثيابهم من فرط احزانهم واخذوا يعددوه ويندبوه بأشعار ويذكرون ما له من محاسن الاثار وكان اكثرهم حزنا اخوه عدي الذي يقول فيه :

ابا ويلي فدمع العين هـــت
على الخدين من دمعي صبابه

على فقد الفتى اخي المهلهل
ونور العين بدري ما اصابـه

غدونـــا كلنا للصيد عنـــه
تركناه كسبع وسط غابـــه

وعند رجوعنـــا لم نلتقيـــه
فأحرق وسط مهجتنا غيابه

فمن يوم اخيه كليب ولـــى
فلا يسرح ولا يلقـي صحابـه

وما فارق محله طـــول عمره
ولا نعرف له مـــدة غيابـــه

مهلهل راح من اولاد مـــرة
وسهم البين ذر لنا نيابـــه

وبعده كيف عاد يصير فينـــا
وجساس فلا تحمل عذابـــه

ترى بعـــده سيمحقنا جميعا
يشتتنا ولا يخشى عقابـــه

الا يا اخوتي مـــاذا نســـوي
واين نروح من هذه العصابه

تعال اخي يا درعان قلـــي
ابا عزوز يـــا منية شبابـــه

ويا حنبل وباقي الامـــارة
تعالوا واسمعوا مني الخطابه

نقول الزير ولى وراح منـــا
قتيل ويندفن تحت الترابـة

قال الراوي هذا ما كان من عدية واخواته واما ما كان من سلطان اخو جـساس فانه بعد اخذ المهلهل الى اخته ضباع لتأخذ منه بثار ولدها ذهب

الى عند اخوته واخبر جساس بما فعل وانشد يشرح له بالحال :

يقول سلطان بن مرة اخويا جساس ايا منيب
رايت الزير ناصب الخيمة بعيد في وسط بستان له يا حبيب
وحده يسكر بليله والنهار رحت انا اليه من بعد المغيب
في ثلاثة الاف فارس غانمين كل فارس مثل سبع وديب
هجمت عليه يا اخي بالعجل ووقعنا عليه بضرب عجيب
ضرب يا جساس بالغ السيوف حتى صار دمه جاري صبيب
ضربته حتى قطع منه النفس وانطرح بلا مسعف ولا حبيب
ثم اخذته لاخته ضباع لناخذ بثار ولدها الحبيب
اخذته واحرقته بنار والقته على جمر نار اللهيب
هذا الذي فعلت بعدك يا همام يا حماة البيض في يوم النكيد

فلما انتهى سلطان من كلامه شكره جساس على اهتمامه وقال بارك الله فيك يا همام فان فعلك هذا نصر لنا مدى الايام ثم ساروا الى الحي وهم في افراح وانشراح ولما وصلوا الى الصيوان جلس جساس في الديوان واجتمعت اليه الابطال والفرسان ثم أمر بدق الطبول ونفخ الزمور وعمل وليمة عظيمة لها قدر وقيمة واجتمع فيها خلق كثير من كل امير وسيد خطير فرقصت النساء والبنات ودارت بينهم الافراح والمسرات وانشرحت خواطر السادات وكان عندهم ذلك النهار من اعظم الاعياد الكبار ولما بلغ بنو قيس حقيقة الخبر وان المهلهل مات واندثر غابوا عن الوجود وايقنوا بالموت الاحمر فزادت بليتهم وعظمت مصيبتهم فمنهم من ارتحل من الديار وقصد الامير جساس وطلبوا منه الامان دون باقي الناس فأعطاهم الامان وجعلهم من جملة العبيد والغلمان ولم يبق عند اخوة الزير من الاشراف الا شرذمة يسيرة وعصبة حقيرة فقصدهم جساس بالابطال ودار بهم من اليمين والشمال فسلموا امرهم اليه ووقعوا عليه فنهب اموالهم واخذ نوقهم وجمالهم ثم شرط عليهم ان لا يوقدوا نارا في الليل والنهار ولا يركبوا ظهور الخيل بل يتربصوا مكانهم في الخيام فأجابوه الى ذلك المرام خوفا من الاندثار ونزول الدمار وبعد هذا رجع الى الديار بالفرح والاستبشار فعظم شأنه وتأيد بالعز مكانه وصار له مكان عظيم وحكم السبعة اقاليم اما اخوة المهلهل فانهم بعد هذا العمل رحلوا من الديار بأولادهم واطفالهم ونسائهم ونزلوا بوادي الشعاب وهم في بكاء وانتحاب وذل وعذاب وصبروا على حكم رب الارباب هذا ما جرى لهؤلاء واما الزير الاسد الغضنفر فانه لما

ابنة اخته في البحر كما سبق الخبر تقاذفته امواج البحر العجاج وساقته المقادير الالهية الى مدينة بيروت

واتفق بالامر المقدر ان ثمانية من الصيادين بينما هم يصطادون سمك نظروا ذلك الصندوق في البحر العجاج تتلاعب به الرياح وتتقاذفه الامواج فقال احدهم للاخر انظر . هذا الصندوق لقد ساقه الينا

ثم انهم قصدوه بالحال وسحبوه الى الشاطيء بالحبال وذلك بعد تعب شديد ما عليه من مزيد فقال رئيس الشختور لباقي الاعوان تعاونوا حتى نقسمه علينا الان قبل ان نفتحه يا اخوان فياخذ كل واحد منا حقه فأجابه بعض الرجال ما هو مرادك بهذا الحال فقال ان لي نصف ولكم نصف لاني صاحب الشختور والرئيس فقال وحق حمار العزيز ما تنال منه شيء يا شبير ثم وقع بينهم الخصام وتشاتموا بالكلام فضرب احدهم الرئيس بسكين فقتله وكان للرئيس اخ فضرب القاتل بالمقذاف فجندله وما زالوا يقتتلون طمعا بالمال حتى قتل منهم عدة رجال ولم يسلم سوى واحد واتفق ان حكمون كان قد خرج في تلك الساعة مع اكابر دولته للصيد والقنص فمر من ذلك المكان فوجد الصندوق والرجل والقتلى مطروحة على الارض فسأل الصياد عن السبب فأخبره بواقعة الحال فتأمل الملك في الصندوق فتعجب من كبره وثقله واراد ان يعرف ما فيه فأمر بحمله الى السرايا ورجع مع رجاله فلما وصل امر بفتحه ففتحوه واذا برجل طويل القامة عريض الهامة كأنه دعامة واسع المنكبين كبير القدمين مثخن بالجراح من ضرب السيوف وطعن الرماح فقال الملك ماذا وجدتم قالوا يا ملك الزمان فيه انسان كأنه من عفاريت سيدنا سليمان وعيون كعيون السباع فتقدم الملك ونظره فخاف منه وارتاع وكان عنده طبيب ماهر اسمه شمعون فتقدم الى الزير وهو مطروح فجس نبضه فأحس به يتحرك فقال للملك انه حي فقال هل تقدر ان تشفيه وانا اعطيك ما تريده وتشتهيه قال نعم يا مولاي ثم نهض على الاقدام وقال بسم الله العلي العظيم فشمر عن زنوده واخذ اسفنجة وبلها بالماء الطاهر ومسح الجروح ووضع المراهم على القروح وفتح الزير عينيه فنظر في ذلك المحفل فراى جماعة من الرجال صفر الوجوه بسوالف طوال فاعتراه الاندهال فقال له حكمون من انت وما هو اسمك فقال اسمي الموحد واعبد الاله العظيم رب موسى وابراهيم فقال ما هي قصتك وسبب وضعك في هذا الصندوق فقال كنا اربعة سياس عند احد الملوك وكنت المقدم على الجميع فحسدوني وضربوني ذات

يوم بقصد انهم يقتلوني فغبت عن الوجود من الم الضرب ولم ار نفسي الا في هذا المكان فقال الملك للحكيم خذه لعندك وداويه بالعلاج حتى يشفى وبعد ذلك احضره لعندي فاخذه الحكيم الى داره وعالجه مدة من الزمان فشفي وختمت جراحه وتحسنت احواله فاتى به الى الملك ولما دخل عليه وتمثل بين يديه فقال له الملك كيف انت الان يا موحد فقال بحسب انظارك الشريفة شفيت وحصلت على دوام العافية فلله در هذا الحكيم فانه يستحق الاكرام والانعام فمهما انعمت عي فاني سأعطيه اياه فتبسم الملك من هذا الكلام وانعم على الحكيم ثم التفت الى المهلهل وقال اعلمني بحالك وكيفية احوالك واشار الملك يقول :

فلما فرغ حكمون من مقاله قال له الزير اعلم ايها الملك الجليل وصاحب الفضل الجزيل ان سألت عن حسبي وعن نسبي ووظيفة ابي فانه كان ملك من ملوك العربان ثم غدر به الزمان حتى صار يسوس الخيل وانا اتبعته فمهنته مهنتي :

قال ابو ليلى المهلهل بي قصيد ... يا ملك حكمون يا حلو الخصال
في بلادي ان سألت عن الجلوس ... مجلسي في الوسط فوق اعلا الرجال
وان سألت الشور كل الشور لي ... ما احد يقدر يخالف لي مقال
واوقع الحرب وضرب السيوف ... فالعذارى هللت فوق الجمال
والسيوف الحدب عاد لها هدير ... والقتول تلول عادت كالرمال
فذاك اليوم انا عز الملاح ... ما مثلي في اليمن وفي الشمال
وان اتاني ضيف انا عز الضيوف ... واشبع الضيف من لحم الجمال
والفتى المعروف منجد يا امير ... ابن وائل ذاك لي يا امير خال
ان كنت تسأل يا ملك عن صنعتي ... صنعتي حاصود لرؤوس الرجال
اما ابي فكان ذو قدر عظيم ... مال فيه الدهر يا حكمون مال
صار سايس بعد عزه للخيول ... بالكرامة بعد عزه والدلال
وانا قد صرت سايس بعده ... اسوس الخيل ما مثلي مثال

وجروحاتي هي من عض الحصان — قد ضربني برجله اربع نعال
قمت من كدري ضربته في حشاه — راحت السكين تلعب للنصال
لاجل ذاك المهر سوو هل فعال — ورموني بالذل مع كثر الخبال

فلما سمع حكمون هذا الكلام من الزير غضب عليه وقال انت اخبرتني قبل الان ان رفاقك قتلوك والان تقول ان الحصان ضربك فتكذب علي وتحتقرني فلو كنت من الاكارم ما جرت عليك هذه العظائم ثم صمم على قتله فشفعت له اكابر دولته ووضعه في الحبس وبقي هناك مدة سنة وكان يسطو على المحابيس ويأكل طعامهم فضج منه الناس وشكوه للملك وقالوا له اذا كان هذا سايس كما يقول فاجعله يسوس الخيل لانه يقاسمنا طوعا او كرها وهذا امر لا يطاق فدعه يشتغل ويأكل خبزه بعرق جبينه فاستدعاه الملك وقال له هل انت ماهر بسياسة الخيل قال نعم سلموه خيلنا فاذا وجدناه ماهرا في ذلك اكرمناه . قال الراوي وكان كثيرا ما ينفرد بنفسه ويتذكر اهله وعشيرته وما هو فيه من الاهانة والاسر فيبكي ويقول ليت شعري ما جرى على اهلي من بعدي لان الاسير كما لا يخفى على الحاذق البصير بمنزلة العبد الحقير ولو كان من بيت شهير وعلم تحرير فكيف من يكون مثل الزير الذي قهر الابطال المغاوير وشاع ذكره عند الملوك المشاهير فانه بعد ذلك العز والاحترام وعلو الجاه ورفعة المقام وقع في اسر بني اسرائيل الانذال فكان الموت اهون عليه من هذا القبيل فسلم امره الى الله وقعد ينتظر نفوذ حكمه وهو يتأمل الفرج والخلاص من شرك الاقتناص وكان قد انتخب له فرسا من اطيب الخيول طويلة العنق صغيرة الراس واجود من القمبرة فرس جساس فاعتنى بتربيتها حتى حالت فاخذها الى شاطىء البحر وربطها هناك فخرج عليها حصان من البحر فشب عليها فراحت حاملة وبعد سنة ولدت له مهر ادهم كامل الاوصاف ململم الاطراف فسماه الاخرج لخروج اباه من البحر ثم فعل ذلك العمل في العام الثاني فولدت له مهر اخر كانه الابجر حصان عنترة فسماه ابو حجلان واعتنى بهما دون باقي الخيل وكان يسوسهما في النهار والليل واستمر على تلك الحال مدة اربع سنين وهو يطلب الفرج من رب العالمين .

وسار المركب بالمهلهل وفي اليوم
الرابع اشرفت السفينة الى ميناء حيفا ألقت مرساها ونزل المهلهل الـــى
البلد وابقى الحصان في المركب وامر القبطان ان يحتفظ عليه لحين الطلب
ومن هناك تسربل بالسلاح تحت الثياب وقصد دياره فالتقى به ابن ناصر
وهو حافي عريان وكان من الاعيان ومن اصحاب الزير فأقبل اليه وسلم
عليه فرد طراف السلام ثم انه عرفه بنفسه واخبـــــره بما جرى عليه اولا
واخرا فقال اهلا وسهلا بقدومك علينا فوالله كنا قطعنا الامل منك فالحمد
لله على اجتماعنا فقم الان بنا الى ربعنا لتنظر اهلك لانهم دائما في ذكرك
فقال قصدي اذهب الى حي بني مرة وانظر باقي قومنا الذين التجوا الى
جساس فسر معي الى هناك فسار ناصر معه وهو فرحان جدا فـــي
سيرهما حتى وصلا الى حي بني مرة فالتقيا بالامير سالم المهيا قاصدا
الصيد مع جماعته ولما اقترب سالم من المهلهل ونظره حن قلبه اليه فحياه
وجعل يتأمل فيه ويقول والله من يوم غاب حامينا فقدنا عزنا وما عدنـــا
ابصرنا قامته الى اليوم ثم دمعت عيونه فقال الزير كيف تبكي عليه وانت
ملتجي الى عداه فعند ذلك عرفه ونزل عن ظهر جواده ووقع عليه واعتنقه
المهلهل وطيب خاطره وقال لهم ابقوا في مكانكم وعندما تسمعون صريـــر
السيوف في اعناق بني مرة تفعلون ما يجب عليكم فعله فساروا في سرور
وافراح يعلم بعضهم بعض واما الزير فانه سار وطراف متنكرين فدخـلا
الى حي جساس وقت المساء فوجد الحي في دق طبول ونقر دفوف وامور
على مسرات وافراح فقال المهلهل ما عسى ان يكون هذا ولما اقترب مـــن
صيوان جساس وجده غاصا بالناس وجساس جالس في الصدر وحولـــه
الاكابر والاعيان والمولدات تدق بالدفوف والمزاهر ثم حضر العبيد بسفرة
الطعام فقام جساس الى المائدة وتقدمت بعده الامـــــراء وجعلت تتوارد
الفرسان وتتزاحم بعضها على بعض فعند ذلك تقدم الزير مع جملة الناس
وجلس بقرب جساس واخذ يتناول من انواع الاطعمة فلما رآه جساس
انكره واستعظم جثته وهو يأكل اكل الجمال فقال له ادع لي يا شيخ فقال
انني دائما ادعو الك ولست بناسيك على طول الزمان فازداد جساس خوفا
وارتجفت اعضاءه ولما انتهى من العشاء امر باحضار الرمل وضربه في

الحال ورسم الاشكال فظهر له الكيس واحمرار وانه قادم عليه ايام منحوسه ويظهر رجل قوي يذيقه الاهوال فتأكد عنده ان ذلك الرجل هو الزير لانه لا يوجد له عدو غيره فالتهب قلبه بنار وصاح بملء راسه يا ستار فقال له اخوته ما اصابك يا امير فانشد يقول :

قال جساس ابن مرة في بيوت	اسمعوا يا اخواتي اهل الوفاء
ضاق صدري وامتلأ في هموم	والقلق والغم ضارب بالحشــا
جبت تخت الرمل قد حورتـه	حتـى ارى ما هو هذا البـلا
وجدت الجد آت عــن قريب	صاحب البطش ما بين المــلا
ورايت الجواد له بيت ضـد	والجماعة شكلهم واقع حــدا
ما عاد لي عقل لهذا الرمل قط	جرت فيه اليوم يا اهل الهنـا
لو يصح القول قلت الزير جـا	ها هو جالس بينكم يا امــراء

فلما فرغ جساس من شعره وفهم الزير الطوية عرف المقصود فوضع يده على سيفه حتى اذا قال جساس اقبضوا عليه يفتك به ويعدمه الحياة ومن كثرة ما جرى على جساس من الغم والوسواس ترك ما كان عنده من الناس ودخل على الحريم خوفا من امر يأتي فلما رآه الزير فعل ذلك قال لا بد من قتله ان لم يكن اليوم فغدا ثم خرج الى الصيوان مع الامير طراف وسارا قاصدين الاوطان فوصلا الى وادي الشعاب ودخل الى الخيمة التي فيها بنات كليب فسمعت ابنة كليب اليمامة صوته فقالت من انت وما هو اسمك فلما سمع صوتها عرفها فتقدم اليها فوجدها وشقائقها بثيــــاب السواد فتقطع قلبه وهطلت عيناه بالدموع وقال اتقبلوا الضيف يا بنات الاماجيد قالت مرحبا بك فاننا اول من ضاف ولكن قد جار علينا الزمان فأذلنا بعد العز والجاه وصرنا في حالة يرثى لها فاقصد يا شيخ محــل الوليمة وهو المكان الذي تدق فيه الطبول فتحصل على بلوغ الآمال فقال بالله عليك يا صبية ان تحكي لي واقعة حالكم فقد جرحت قلبي بهذا الكلام فقالت اليمامة لقد ذكرتنا بمصابنا وما جرى فجلس الزيــــر هو وطراف وجلست هي بجانبهما ثم انه عرفها وشقايقها بنفسه وانه هو عمها الزير وانه نجا وعاد سالما لينتقم من اعدائه فصاحت بصوت عالي اهذا فــي الحلم ام في اليقظة ثم وقعت عليه وشقايقها يقبلونه وقلن الحمد لله الذي ارانا وجهك بخير وعافية فوالله قد زالت اتراحنا وتجددت افراحنا وسمع ابو شهوان عبد الزير هذا الخبر فدخل عليه ووقع على قدميه لانهم كانوا يظنونه مات فكانت تلك الليلة عندهم من اعظم ليالــي الافراح والمسرات

وبعد ذلك جلسوا يتحدثون فقالت اليمامة بالله يا عماه ان تعلمنا بقصتك وما جرى في سفرتك فقص عليهم ذلك الخبر وما سمع وابصر وختم كلامه بهذا القصيد :

قال الراوي وكانت ليلة عند بنات كليب من اعظم الليالي وحضر تلك الليلة جميع اصحاب الزير ففرحوا وانشرحوا بقدومه وهنوه بالسلامـــة فقال لهم من الاوفق ان تكتموا امري لبينما اتجهز لقتال الاعادي واحضر جوادي ثم اعلمهم بخبر الحصان وانه ابقاه في المركب عند القبطان لبينما يكون شاهد اهله واقاربه ولما انتصف الليل ودعهم وسار قاصدا شاطيء البحر ، هذا ما كان منه واما مرة ابو جساس فكان من عادته ان يذهب كل يوم الى ساحل البحر ويتجسس الاخبار ويعود في اخر النهار فاتفق ان عبدين من عبيده كانا قد نظرا المركب عند قدومه الى ميناء حيفا فأعلماه به فاستأجر قاربا وقصد المركب وعند وصوله اليه وجد ذلك الجـــواد المذكور فاندهش من رؤياه فسأل القبطان عنه فقال له القبطان هذا حصان الزير وقد حضر معنا من بيروت وسار لزيارة اهله من يومين ولم يكـــن القبطان يعلم ما هو جار بين القوم من العداوة والحرب ولما سمع مـــرة بخبر الزير وانه عاد سالما غانما استعظم الامر وتعجب ولكنه كتم الخبر وقال للقبطان اتبيعني هذا الحصان فقال كيف ابيعه وهو مودوع علـــى سبيل الامانة فقال لا بد من ذلك اما أن تقبض ثمنه خمسة الاف دينار او

آخذه منك بالقوة والاقتدار لان ابني جساس ملك هذه الديار وبيدنا زمام الاحكام وما زال يلح عليه بالكلام الى ان امتثل واجاب خوفا من ان يأخذه بالقوة والاغتصاب فقبض القبطان الدراهم وسار مرة بالحصان الى عند ابنه جساس وهو كاسب غانم واعلمه بواقعة الحال وقدوم المهلهل الـــى الاوطان ففرح جساس بالحصان لانه كان من اجود خيول الاعراب ولكنه خاف من الغوائل وعلم انه لا بد من تجديد الحروب بين القبائل فاجتمع بأهله وأعلمهم بالخبر وان يكونوا على استعداد وحذر ، اما الزير فانه عند وصوله البحر الى المركب فلم يجد الحصان فسأل عنه القبطان فأخبره بما جرى وكان فلما سمع هذا الكلام اراد ان يضرب عنقه بحد الحسام لكنـــه توقف عن اذاه اكراما لخاطر مولاه

رواحك من الاوطان اظهر الوحشة ونفر من جميع الناس حتى لم يقدر عليه احد من السياس ثم طلب منه البقاء عندهم عدة ايام ليستريح من متاعب الاسفار فاعتذر وقال : لا بد من الرجوع في هذا النهار فأعطاه حكمون الحصان فسار به الى المركب وعند وصولهم اليها نزل بالجواد الى المدينة فركب وقصد اهله فاتفق في تلك الساعة ان رجلا من قبيلة جساس ابصر الزير فعرفه وسار الى عند جساس واخبره بقدومه وقال اني خايف عليكم من سطوته لانني شاهدته في هذا النهار مثل الاسد الكرار ثم اشار قائلا :

يقول الشيخ يا اولاد مرة ... تعالوا واسمعوا لي يا فوارس
أبا جساس يا همام اسمع ... ايا ملك ويا اهل المجالس
فقد كنت قرب البحر سائر ... رايت خرج علينا اليوم فارس
على ادهم اقب الضلع فارح ... وفوقه درع من بولاد لابس
وفي كتفه قنا اسمر مكعب ... بطل صنديد يوم الروع عابس
فهذا فارس البيدا مهلهل ... مريع الخيل للأبطال داعس

فلما فرغ الشيخ من شعره ونظامه اجابه سلطان بن مرة بهذه الابيات :

يقول اليوم سلطان بن مرة ... كلام الشيخ صادق يا فوارس
فان كان ابو ليلى سيظهر ... يخلي دمنا مثل البواطس
ويسبي من قبائلنا عذارى ... ويترك ارضنا قفرا دوارس
ولا يقبل رجاء ولا عطايا ... ويطرحنا على غبرا نواكس

فلما فرغ سلطان من كلامه وقع الخوف في قلوب القوم واخذوا يستعدون للقتال من ذلك اليوم واما الزير فقد جد في المسير حتى وصل الى دياره والتقى بأهله وانصاره ففرحوا به واتت اليه اليمامة وشقايقها واخوة الزير وكل من في الحي نساء ورجال ووقعوا عليه يقبلون يديه وانتشرت الاخبار بقدومه الى الديار بين الكبار والصغار حتى ملأت الاقطار فأقبلت الابطال والفرسان وتواردت اليه السادات والاعيان فسلموا وتمثلوا بين يديه وهنوه بالسلامة فشكرهم واثنى عليهم وترحب بهم وذبح لهم الذبايح واولم الولائم ووعدهم بالمكاسب والغنايم بعد ان اكلوا وشربوا انشد عدي اخو الزير قائلا :

يقول عدي ابيات فصيحة ... اتانا الزير والمولى عطانا
وكنا قبل ما ياتي الينا ... بحال الذل في قهر حزانا
وجساس الردي عايب علينا ... يريد هلال تغلب مع ادانا
امرنا بان نبقى جميعا ... على طول الليالي مع نسانا
ولا نركب خيولا صافنات ... ولا نمل سيوفا في حمانا
الينا جيت يا حمل المحامل ... ويا كهف العذارى والامانا
لربي الشكر ثم الحمد دايم ... اذا ما جئتنا نقهر عدانا
ابا سالم فانهض وشد عزمك ... واركب وق مطلوق العنانا
وتركب ثم تحمل فرد حملة ... على اولاد مرة في لقانا
ونترك دورهم بورا وقفرا ... ونقتلهم وناخذ ثار اخانا

فلما فرغ عدي من كلامه تقدمت اليمامة لعمها وشكرت الله على سلامته ودعت له بطول العمر فضمها الزير الى صدره والتفت من حوله وانشد :

يقول الزير ابو ليلى المهلهل ... الا يا بنات السعد جاكم
واقبل سعدكم والشر ولى ... وراح الشر عنكم لاعداكم
فقروا وابشروا مني وطيبوا ... اله العرش قد زول عناكم
ثمان سنين وسط البحر غائب ... وبالي عندكم عما دهاكم
وفرج خالقي همي وغمي ... وخلصني وجيت الى حماكم
وحيث اتيت زال الشر عنكم ... ونلتم يا بنات مني مناكم
غدا جساس اقتله بسيفي ... وآخذ يا بنات بثار اباكم
وانتم يا عدي ويا دريعان ... وباقي اخواتي تسلم الحاكم
فاتوا بالصوافن واركبوها ... وهبوا جميعكم ومن معاكم
ودقوا طبلكم يا آل قيس ... وقيموا النار في ساير حماكم
وخبوني بعيد عن المنازل ... غدا جساس يبرز للقاكم
فلاقوه على خيل ضوامر ... واني سوف اهجم من وراكم

قال الراوي فلما فرغ الزير من كلامه طابت قلوبهم وانشرحت صدورهم وزالت عنهم الاتراح وايقنوا بالنصر والنجاح وما زال بنو قيس يجتمعون والى الزير يتواردون حتى صاروا في جمع غفير وعدد كثير فاستعدوا للقتال والنزال فاطعموا الجوعان واكسوا العريان واوقدوا النيران ورجع الحي كما كان من الزير وقومه واما بنو مرة فلما بلغهم الخبر وكيف ان بني قيس قد التموا بعد ذلك التفريق والشتات من جميع الجهات وهم في افراح ومسرات اجتمعوا بجساس وقالوا له لو لم يكن الزير قد ظهر لما كانت بنو قيس اجتمعت في هذه الايام وخالفت امرك ومراسيمك العظام

فقال كفوا عن هذا الكلام ولا يخطر لكم الزير على بال واستعدوا للحرب والقتال فاستعدت الفرسان الفحول وركبوا ظهور الخيول وتقلدوا بالسيوف والنصول ولقد املوا بالنجاح وبلوغ الامل وركب جساس حصان الزير الاخرج وسار بذلك الجمع الغفير ولما اقتربوا من حي بني قيس سمعت ابطال الزير دق طبولهم وصهيل خيولهم فهاجوا وماجوا فامرهم الزير ان يتأهبوا للقتال ويلاقوهم في ساحة المجال فتبادروا في الحال وتقدمت الفرسان وركب الزير على مهره ابو حجلان وسبقهم الى الميدان وكمن في بعض الروابي والتلال مع جماعة من الرجال ولما اقترب جساس من رجال بني قيس قال لهم قد خالفتم اوامري وغركم الطمع وهجم عليهم بالرجال واحاط بهم من اليمين والشمال فالتقوهم بقلوب كالجبال واشتد بينهم القتال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال ولكز الزير الحصان وتقدم الى ساحة الميدان فشق الصفوف والكتائب ومزق بحملته المواكب وهو يهدر ويصيح من قلب قريح ابشروا يا بني بكر بالذل والويل فقد اتاكم المهلهل فارس الخيل وسترون ما يحل بكم من الويل على ما عاملتمونا به من سوء الفعال فقد اقسمت برب الانام الذي لا يغفل ولا ينام اني لا اترك منكم لا شيخ ولا غلام ثم انه صال وجال وضرب بالسيف الفصال وتبعته الفرسان والابطال من اليمين والشمال فلما سمع جساس صوت المهلهل انقطع قلبه من الخوف والوجل ولكنه ثبت في الميدان خوفا من الهلاك واخذ يحث الابطال والفرسان على القتال والثبات على لقاء الاعادي قبل الممات فثبتوا ثبات الجبابرة وقاتلوا قتال الاسود الكاسرة لكنهم لم يقدروا ان يثبتوا اكثر من ثلاث ساعات حتى انصبت عليهم البلايا والنكبات وبلوا ببلايا لا تطاق من سيف المهلهل فارس الآفاق فولوا الادبار وركنوا الى الهزيمة والفرار بعد ان قتل منهم عشرة الاف فارس كرار وتبعهم الامير جساس وهو في قلق ووسواس وغنمت بنو قيس منهم غنائم عظيمة ومكاسب جسيمة ورجعت الى الديار بالعز والانتصار والبطش والاقتدار في مقدمتهم الامير المهلهل الجبار وهو مثل شقيقة الارجوان مما سال عليه من ادمية الفرسان ولما وصل الى المضارب بقواد المواكب لاقته بنات اخيه وجماعة من اقاربه واهاليه فشكروه على تلك الفعال وقالوا مثلك تكون الابطال والفرسان فجلس في الخيام وجلست حوله السادات العظام وجبابرة الصدام فتحادثوا في الكلام وشكروا رب الانام على بلوغ القصد والمرام وبعد ان اكلوا الطعام وشربوا المدام التفت بعض القواد الى المهلهل فارس الطراد وقالوا له

بالله عليك أن تنشدنا شيئا من اشعارك لان قلوبنا مشتاقة للوقوف على آثارك وما جرى لك في اسفارك فانشد الزير يقول وعمر السامعين يطول:

يقول الزير ابو ليلى المهلهل — فكل مقدر لا بد يأتي
نزلت يا اخوتي وابناء عمي — بجنح الليل لا يدرو صفاتي
فقالوا ضيفنا شرطوا علينا — فلا توقدوا النار في الفلاة
ولا نفزع ولو فزعوا علينا — ولا نركب خيول الصافتاة
تكافحت اليمامة مع حمامة — وقالت عماه هيهات يأتي
فقلت لها لبيك جئتك — انا مرادي السباع الكاسرات
فجيت لعندها في قلب صامت — وجدت عيونها مقرحات
فقلت يا يمامة ليش تبكي — جرحت بالبكا قلبي وكلاتي
فعمك يا يمامة ليس مثله — اذا ثارت حروب في الفلاة
انا عمي كراديس الفوارس — اذا ما وهجت نار العداة
وجيت انا على جساس رامح — هرب مني وصاح اتوا العداة
وقال الزير اجانا يا بلانا — وطالب ثاره بالمرهفات
فقولوا لابن مرة ان يفدي — اتاه الزير ذباح العداة

فشكروه اخواته وتقدم سالم المهيا الى الزير وقبله بين عينيه وانشد:

على ما قال سالم المهيا — مهلهل جيت هذا اليوم يومك
وزال النحس والتوفيق اقبل — واضحى القطر يزهو في قدومك
ولما جيت يا زين الفوارس — ازلت همومنا زالت همومك
فقم اركب عليهم يا مهلهل — نهار وايل ما احد يلومك
وخذ الثار من جساس حالا — وافرج همنا واخلي همومك

قال الراوي فلما فرغ سالم المهيا من شعره طابت قلوب الجميع وعادوا لما كانوا عليه من الفرح والمسرة اما بنو مرة فابتلوا بالذل والويل من حرب الزير فارس الخيل ولما اصبح الصباح واشرق بنوره ولاح ركب المهلهل في مئة الف بطل وطلب حرب القوم فالتقاهم جساس في ذلك اليوم وكان بمعيته مائتا الف مقاتل ما بين فارس وراجل فانتشب بين الفريقين القتال وعظمت بينهم الاهوال وقاتل المهلهل حتى استقتل فنكس الابطال والفحول عن ظهور الخيول وقتل جماعة من الاعاظم الذين اشتهروا بالفضل والمكارم وشاع ذكرهم بين الاعارب والاعاجم فمنهم الامير شهاب المكنى بالعقاب وغيره من السادات والانجاب واستمر القتال على هذا الحال طول ذلك

النهار فانكسرت بنو مرة اشد انكسار ورجع المهلهل بالعز والانتصار ولما
كان الصباح ركب المهلهل والفرسان فالتقاه جساس بالرجال والابطال
وتقاتلوا اشد قتال ولما تقابلت الصفوف وتبادرت الميات والالوف برز
شاويش اخو جساس بين الصفين ولعب برمحه بين الفريقين وطلب قتال
المهلهل فانطبق عليه وحمل كأنه قطعة فصلت من جبل او قلة من القلل
فتطاعنا بالرمح وتضاربا بالبيض الصفاح وثبت شاويش امام الزير ثبات
الابطال المغاوير لانه كان من الفرسان المذكورة والابطال المشهورة واستمر
اثنان نحو ساعة من الزمان وهم في ضرب وطعن وهزل وجد وكان الامير
شاويش قد حتم على نفسه امام السادات اما ان يهلك في ذلك النهار او
يظفر بخصمه ويعيش في عز واقبال ثم صاح على المهلهل وطعنه بالرمح
قاصداً قبض روحه فالتقاها المهلهل بالدوقة فراحت خائبة بعد ان كانت
صائبة ثم تقدم المهلهل وهجم عليه وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع
من علائقه فوقع على الارض قتيلا وفي دمه جديلا ثم هجم على الرايات
وطعن في صدور الفرسان فقتل الرجال ومدد الابطال في ساحة المجال
وفتك فيهم فتك الاسود الكاسرة وفعل فعالا تعجز عنها صناديد الجبابرة
وفعلت قومه مثل افعاله فقاتلوا القتال المنكر واذاقوا الاعداء الموت الاحمر
فلما رأى جساس ما حل بقومه استعظم المصاب وخرج عن دائرة الصواب
وزاد اكتئابا على اكتئاب على فقد اخيه ليث الغاب لانه يحبه محبة عظيمة
ويوده مودة جسيمة فبكى وانتحب وولى يطالب الهرب وتبعته رجاله
وابطاله ورجع الزير بباقي الفرسان الى المنازل والاوطان وهو مثل شقيقة
الارجوان مما سال عليه من الدماء فالتقته اليمامة بالاعزاز والكرامة فنزلوا
في الخيام مع السادات الكرام فاكلوا الطعام وشربوا المدام وكان في كل يوم
يركب حسب عادته لحرب القوم فبلغ منهم غاية المنى وابلاهم بالذل والعنا
فلما طال المطال وعظمت على بني مرة الاهوال جمع جساس من يعتمد
عليهم من الابطال وقال لهم ما قولكم في هذا الامر العسير فقد حل بنا
الهلاك والتدمير وفقدنا كل سيد خطير وان طال المطال لم نجد احدا من
الرجال فقال سلطان الراي عندي ان نأخذ اختنا الجليلة وبعض نساء القبيلة
ونذهب الى الزير ونقع عليه ونطلب منه الكف عن الحرب ونعطيه دية
اخيه مهما طلب ونقيمه ملكا على بلاد الشام ندفع له الجزية في كل عام
فقال جساس ومن يذهب ليقص عليه هذا الكلام فقال انا وانت يا اخي
فتبسم جساس وقال اسمعت بأحد من الناس يرى الموت بين يديه فيزحف

اليه على قدميه فقال سلطان انا اذهب اليه بنفسي لان بيني وبينه مودة قديمة ثم نهض في الحال وتأهب للمسير والترحال واخذ معه اخته الجليلة وبعض نساء القبيلة وقصد حلة المهلهل حتى وصل اليه وقال له بالله عليك ايها السيد ان تصفح عنا لقد اهلكت رجالنا ولم تبق على احد منا وقد اتيتك الان مع اختك الجليلة واكابر نساء القبيلة تقع على ساحة اعتابك ونطلب من جنابك كف الحرب ونبلغك غاية الارب من الفضة والذهب ونقيمك ملكا على هذه الديار ونكون طوعا لك على مدى الاعصار لانك سيفنا الثقيل ورمحنا الطويل ثم انشد يقول :

قال سلطان بن مرة في بيوت ... يا مهلهل استمع مني القصيد
ليت عمرك يا مهلهل الف عام ... يا حماة البيض في اليوم الشديد
فاعف عنا يا سياج المحصنات ... ليت عمرك كل يوم في مزيد
نحن منك وانت منا يا همام ... كلنا اولاد عمك يا رشيد
فاعف عنا ثم دعنا في حماك ... تحت ظلك عيشنا يبقى رغيد

فلما فرغ سلطان من نظامه اجابه المهلهل :

اسمع يا ابن عمي ما اريد ... افهم فحوى كلامي في قصيد
ليس لي ذنب في هذي الامور ... وانا في حقكم لست عنيد
غصبعني يا سياج المحصنات ... ليت عمرك يا ابن عمي في مزيد
اليمامة كل يوم تقول لي ... خذ بثأري ايها البطل العنيد
فان عفت عنكم انا اعفو ... كل قولي صادق والله شهيد
وان ابت لا اخالف قولها ... انني عن امرها لست احيد

فلما انتهى الزير من شعره ونظامه قال لسلطان ومن حضر معه انا لا اكف عن الحرب ولا ارفع عنكم السيف الى يوم القيامة او ان تمنعني اليمامة فاذهب اليها وخاطبها بما خاطبتني به امام هؤلاء الاعيان فعسى ان تجيب طلبك فقصد سلطان اليمامة مع اخته الجليلة ومن حضر معه من نساء القبيلة فدخلوا جميعا اليها وسلموا عليها وقبلت الجليلة بناتها وقالت لهن اما كفى يا بنات الاكارم والوفا فقد قتلت رجالنا وهلكت فرساننا وابطالنا وساءت احوالنا وصارت عبرة لمن اعتبر ومثلا بين البشر فاجابتها اليمامة انا لا اصالح حتى لا يبقى بيكم احد وان كان عمي قد عجز عن قتالكم فانا انوب عنه والتقي بأبطالكم ثم انها ختمت كلامها بهذا الشعر والنظام :

قالت يمامة من ضمير صادق | يا جليلة اقصري عني عناكم
انت وخوالي وكل عشائري | لا تزيدوا لفظكم ولا لغاكم
قتلتم الماجد كليب والدي | غدرا وما له ذنب معاكم
جساس طعنه من قفاه بحربة | ودعاه على الغبرا قتيل حداكم
انا واخوتي بقينا بذله | نمسي ونصبح ولا ننسى بلاكم
انا لا اصالح حتى يعيش ابونا | ونراه راكب يريد لقاكم

فلما فرغت اليمامة من شعرها ونظامها وفهمت الجليلة فحوى كلامها رجعت مع اخيها وباقي النساء الى الحي وبدون افادة واخبروا الامير جساس بواقعة الحال فاعتراه الخوف والانذهال وايقن بالهلاك والوبال فقال اخوه سلطان وكان ذو مكر واحتيال اني سأهلك الزير ايها الامير ونقوده اليك عند الصباح كالبعير فقال وما هو الفعل فأجاب اني اقصد الميدان بجماعة من الاعوان واحفر هناك ثلاث حفاير ونغطيهم حتى يخفوا عن عيون العساكر فاذا كان الصباح والتقى العسكر بالعسكر تبرز انت والزير وتكون عارف بهم فتقوده اليهم وتتم الحيلة فيسقط ويهلك في هذا الشرك فنتخلص من شره ونبلغ ما نتمناه فاستصوب جساس هذا الراي واستحسنه وخرج في ذلك الليل مع اخيه سلطان وجماعة من العبيد والاعوان الى ذلك المكان فحفروا ثلاث حفاير عميقة وغطوها بالقش ووضعوا عليها التراب حتى اختفت عن العيون ثم رجعوا الى اماكنهم وهم مسرورين وباتوا تلك الليلة على مقالي وهم ينتظرون طلوع النهار . هذا ما كان من هؤلاء اما الزير البطل النحرير فانه ركب في الصباح بفرسان الكفاح وقصد ساحة الميدان بقلب اقوى من الصوان فالتقاه جساس بالعسكر ثم انفرد بنفسه نحو تلك الحفاير واخذ يلاعب الجواد على عيون العساكر والقواد فرآه بعض الفرسان وهو يجول في ذلك المكان على ظهر الحصان فأعلم المهلهل بذلك الشأن وقال له ان خصمك ظاهر للعيان وهو في تلك الناحية من الميدان فلما رآه المهلهل قصده على عجل ليقتله ويبلغ الامل فلما اقترب منه ابتعد عنه جساس فتبعه المهلهل على الاثر فسقط في احدى الحفر فارتد عليه جساس وانطبقت عليه باقي الناس بقصد ان يطعنوه ويهلكوه ويعدموه فلله در الحصان ابو حجلان فانه كان من عجائب الزمان وغرائب الاوان اخف من الغزلان واسبق من البرق عند اللمعان فانه عندما وقع ضرب بحافره الارض فارتفع حتى صار بين الفرسان بالميدان فرجعت الخيل مدبرة عنه فاستعظم الزير تلك الامور المنكرة وغاب عن الوجود حتى

صار حاضرا بصفة مفقود ورای جساس ينخي ابطاله ويصيح على رجاله فتقدم نحوه بالجواد ليشفي منه غليل الفؤاد فاتفق بالامر المقدر وقوعه في الحفرة الثانية فوثب به الجواد وانتصب اسرع من لمح البصر حتى صار على وجه الارض فانقلبت عليه العساكر بعضها على بعض فزاد بالزير الكـــدر وطار من عينيه الشرر وقصد الامير جساس دون باقي الناس ليقتله ويعدمه الحواس فكبى به الجواد في الحفرة الثالثة وكانت عليه اقبح حادثة اذ كان جواده قد اعياه التعب وضعف قواه وانحل منه العصب حتى لم يعد يمكنه ان يفعل كما كان يفعل وكذلك الامير مهلهل فقد انهد حيله وطاش واعتراه الخوف والارتعاش وايقن بالهلاك والممات وآيس عن نفسه من الحياة فكانت حيلة عظيمة وداهية جسيمة فلما بلغ جساس الامل ونجح بذلك العمل ايقن ببلوغ الارب وصاح من شدة الطرب على باقي رجاله من يعتمد عليهم من ابطاله يا ويلكم ادركوه واطمروه واقتلوه فان تخلص هذه المرة من الحفرة لا تتأملون بنجاح او نصرة فلما سمعت الرجال منه هذا المقال فقصدوا ذلك المكان وكانت ايضا بنو تغلب قبيلة الزيـــــر فارس العجم والعرب اقبلت فرسانها ورجالها وانتشب بين القوم قتال لم يسمع بمثله قبل ذلك اليوم وكان القتال بجانب تلك الحفر ولما عظمت الاهوال وتكردست جثث القتلى على الارض مثل التلال من ضرب السيوف وطعن النصال هجم جساس امام الناس وقال للفرسان والابطال والشجعان ادركوني في هذا النهار واسعفوني في التراب والاحجار واردموا هذه الحفرة في الحال وانا ارد عنكم هجمات الرجال فتقدموا على عجل وبادروا باجراء هذا العمل غير انهم لم يبلغوا الامل لان اخوة الزير الفرسان المشاهير هجموا عليهم من اليمين واليسار وضربوا فيهم بالسيف البتار فأبلوهم بالذل والدمار وكان الامير مرة بجانب تلك الحفرة فرآه عدي اخو الزير فتقدم اليه وقبض عليه والقاه في تلك الحفرة بالعجل وقال خذ عمك يا مهلهل ولما صار بالقاع ضربه بالسيـــــف فقتله ثم اخرجوا الزير بالقوة والاقتدار فعند ذلك انشرحت من بني تغلب الصدور وزالت عنهم الغموم والكروب وايقنوا بالتوفيق والنجاح والفلاح وقصدوا الحرب والكفاح والتقوا اعداءهم بأسنة الرماح ومال الزير على القوم ونادى اليوم ولا كل يوم وفي الحال اشتعلت نيران القتال وقامت الحرب على قدم وساق وارتجت جانب الآفاق من ضرب السيوف الرقاق وطعن الرماح الدقاق وجمدت من القوم الاحداق وفعل الزير في ذلـــك اليوم فعالا لا تطاق وما زالوا في اشد القتـــال الى وقت الزوال فدقت

طبول الانفصال فرجعت بنو مرة بالويل والحسرة والمهلهل بالنجاح والنصر فنزل عن ظهر الجواد وخلع آلة الحرب والجلاد وجاءت السادات واكلت الزاد ولما جلس في الصيوان صاح على عبده ابو شهوان باحضار المدام الى الديوان فأحضره بالعجل فتناول منه المهلهل ومن حضر في ذلك المحفل فعند ذلك تذكر ما جرى له في ذلك اليوم المهول فأنشد :

يقول الزير ابو ليلى المهلهل ... فدمع العين هطال عمانا
لقد قتلوا اولادا لعمي ... وقالوا ما رواه الا جبانا
ولا يررون بأسي واقتداري ... فقطعتهم لم اخش الزمانا
اتتنا في كليب اولاد مره ... اتونا داخلين على نسانا
وقالوا كف عنا يا مهلهل ... فقد حكمت سيفك في اذانا
فاطلب ما تريد اليوم منا ... واتركنا فقد صرنا حزانا
فقلت لهم روحوا لليمامة ... رضاها اليوم احسن من رضانا
قتلنا في كليب الوف قوم ... فما فيهم ردي ولا جبانا
قتلنا من بني مرة اماره ... ملابسها ثياب الطيلسانا
فراحوا الكل قد وقعوا عليها ... قالوا عمك ارسلنا عيانا
فقالت اذهبوا اولاد مرة ... فهذا القول ضحك على لحانا
فانا لا نصالح في كليب ... الا ان نراه على الحصانا
وقد حفروا لي جملة حفاير ... وغطوها وقالوا قد كفانا
فركبوا خيولهم واتوا حذاها ... وقالوا قد اتانا قد اتانا
وقف جساس ما بين الحفاير ... هجمت عليه اطعنه السنانا
فولى هاربا من هولي وخربي ... ومرة قد قتلناه عيانا
فكوني يا يمامة في انشراح ... وحفظ دايم طول الزمانا
فسوف ابيد جساسا بسيفي ... وكل سفيه يبغي اذانا

فلما فرغ الزير من شعره ونظامه شكره جميع اقوامه ولما كان الصباح رجعوا الى ما كانوا عليه من الحرب والكفاح وما زالوا في قتال وصدام عدة ايام ولما طال الامر اتفقوا على توقيف الحرب واخذ هدنة شهرين لراحة الفريقين فاتفق في بعض الايام بينما كان الزير خارج الخيام ومعه بعض الخدام واذا برجل يقود مهر ادهم كامل الصفات فاستحسنه الزير غاية الاستحسان وقال لقائده ما هو اصل هذا الحصان فقال يا حلو الشمائل انه من الخيول الاصايل وقد اتيت به من ابعد الحلل لاهديه للامير مهلهل فتعجب الزير من هذا الاتفاق الغريب وقال لقد نلت مرادك من قريب فانا المهلهل الذي انت قاصده فأخذ منه الجواد وامر له بألف دينار

وبلغه مقاصده فدعا له بطول العمر والبقاء وعلو الشأن والارتقاء وسار من يومه الى قومه فاعتنى الزير بذلك الحصان وفضله على جميع الخيـــول والجياد واتفق في ذلك النهار انه التقى برجل اختيار وهو راكب على دابة سوداء مثل الظلام وراءها كر ابن سبعة ايام وهو يرطع خلفها فلما رآه المهلهل اعجبه فقال للشيخ اتبيع هذا الكر فقال نعم فقال بكم قال الشيخ ليس على الكريم شرط فأعطاه الزير مايه دينار واخذه منه وسلمه للسايس فرباه مدة اربع سنوات ثم دخل الزير ذات يوم الى الاصطبل فرأى الكر وهو متعافى فأمر السايس باسراجه وأن يرمي عليه عدة ولجام فأخرجه له واسرجه ولجمه فركب عليه الزير وساقه الى اليمين فراح شمالا واجتهد ان يمشيه فما كان يمشي معه فغضب منه ولكزه برجله في الركاب فتضايق المشؤوم من فعاله وضرب الارض بنعاله ثم ضرط ضرطة عظيمة من شدة الوجع كأنها صوت مدفع فغضب الزير وضربه بالسيف اورثه العدم ودخل الى صيوانه واجتمع بنوابه واعيانه وقال لقد جربت دنيء الاصل واكرمته فضاع فعلي معه وما قدمت هذا المثل ايها السادة الاخيار الا لتعلموا ان الحمار يقتني الحمار ثم انه ركب ذلك الحصان فوجده من عجائب الزمان فزاد انشراحه فيه وامر السايس ان يسوسه ويداريه ثم انشد يقول :

يقول الزير ابو ليلى المهلهـــل بيوم الشعر ما تغلـــى بمالي
ايا غادي رضيت الخيل تركب تعالي واسمعي منـــي مقالي
جميع الخيل للحمـــر خوادم شبيه الست تخدمها الموالي
واما الشقر ان طاروا فصدق بنات الريح تسبق في المجالي
واما الخضرا مركـــوب الامارا وسيبوهم لدهمـــات الليالـــي
واما الدهـــم زيدوهم عليقـــا فتركبها الملـــوك وكل والـــي

قال الراوي فلما فرغ الزير من كلامه شكره قومه على حسن اهتمامه ثم استعد الفريقان للقتال وجرت بينهم عدة وقائع واهوال انتصر بهـــا المهلهل وكسب اموالا كثيرة وقتل سادات شهيرة حتى ضعفت بنو بكر وذلت وبعد كثرتها قلت واضمحلت فبينما هم في حال الذل والانكسار واذا بغبار قد علا وثار قاصدا بلادهم وتلك الديار فشخصت اليه الابصار ساعة من النهار الى ان ارتفع وتمزق وبان من تحته الف فارس وكلهم بالســـلاح والدرق لوابس وفي أولهم فارس بالحديد غاطس كأنه قلة من القلل او قطعة فصلت من جبل وعلى راسه البيارق والرايات والسناجق فلما رآه

جساس استبشر وايقن بالفرج بعد الشقاء والكدر ولما اقترب للعيان وتاملته الفرسان واذا به اسد الآجام الامير شيبون ابن الامير همام وكان المذكور قد خرج في جماعة من فرسان الصدام للغزو على بلاد الاروام وذلك من عهد وقوع الزير في البحر كما سبق الكلام فلما عرفوه وتحققو خرجوا اليه واستقبلوه وفرحوا بقدومه الى الديار وكان ذلك اليوم عندهم اعظم نهار فذبحوا الذبائح واطعموا الفادي والرائح الخاق ابو همام وامه ضباع حيث لم يكن لهما غيره سوى الذي قتله الزير على بير السباع فلما نزل في صيوانه وبابطاله وفرسانه خلع عدته وغير ملابسه فدقت له النوبات وقامت الافراح والمسرات وعمل جساس وايمة عظيمة دعي اليها جميع الاكابر وامراء القبائل والعشائر وكان شيبون قد وجد السادات والاعيان في هموم واحزان فسأل عن ذلك الشأن فقال له جساس لا تسأل يا ابن اخي هما اصابنا ودهانا من خالك الزير المهان فانه لم يكتف بقتل اخيك شيبان حتى جعلنا مثلا بين العربان على طول الزمان فأفنى رجالنا واهلك ابطالنا وحرمنا هجوع الليل وهدمنا القوى والحيل وهو لا يقبل منا دية ولا مال ولا فدية وقد اعلمناك بالقضية واوقفناك على باطن الطوية فلما سمع شيبون هذا الكلام صار الضيا في عينيه كالظلام واحمرت عيناه وشتم خاله ووعدهم بالمساعدة والمعاضدة وان يكون معهم على قتال خاله يدا واحدة ثم نظم هذا القصيد وارسله لخاله على سبيل الملام والتهديد .

قال شيبون ن همام الامير — حامي الزينات طعان العدا
مرعب الفرسان في يوم اللقا — ساقيا للعدى كاسات الردا
ضرب سيفي يقطع الدرع المتين — ثم يقدح للصخور الجمدا
كل من يبغي قتالي يرتدي — ويرتمي فوق الصعيد ممددا
لم يبق لي مقارن في المجال — حين يلقوني يولوا شردا
وانت يا خالي مهلهل يا همام — شد عزمك للقتال الى غدا
لا تقل يا خالي ما علمتني — يا قليل العقل لا تتمردا
ابرز الي في الصباح ولاقني — ثم ابشر يا مهلهل بالردى

ثم ختم شيبون الكتاب وارسله الى خاله مع احد ابطاله فذهب واعطاه للزير فلما فتحه وقراه وعرف فحوى معناه غاب عن دنياه وشق عليه وتأسف وصفق كفا على كف وقال انه معذور في هذه الامور لانه جاهل مغرور فاقتضى ان ينتصح قبل ان يقتل واجابه على ابياته يقول :

قال ابو ليلى المهلهل انـــــي مفرج الكربات في يوم الزحام
يا فتى شيبون يا ابن اختي ضباعا تهددني في كتابـك يا غـلام
ثم تطلبني الــى سوق المجال وانت قصير عن ضرب الحسام
احتفظ من ان تجهل يا امير الجهل يسقيك كاسات الحمام
اطرد الشيطان ابليس اللعين وانتصح من قول خالك يا همام
لا تخالفنــي واسمع ما اقول يقتلك جهلك وما تبلغ مــرام
ارتجع عما انت فيه لا تزيـد ان كنت تبغي حربي والصدام
شد عزمك غدا نتلاقى سوى من طلوع الفجر الى وقت الظلام

فلما انتهى الزير من شعره ارسل الكتاب الى ابن اخيه شيبون فلما فتحه وعرف ما احتوى عليه من المضمون مزقه ولم يكترث ولما اصبـــح الصباح واشرق بنوره ولاح دقت طبول الحرب والكفاح وركب شيبـــون وجساس وكذلك الزير الفارس الدعاس والتقوا بأبطالهم ورجالهم وكـــان شيبون قد برز الى ساحة الميدان وتبعته الابطال والفرسان والتقى بفرسان تغلب وفعل بهم العجب فما صدم فارسا الا عطبه وعن ظهر جواده قلبه ثم صاح وحمل بقلب اقوى من جبل وطلب مبارزة خاله المهلهل وكان الزير شاهد افعال ابن اخته وما فعل بأبطاله ورفقته حمل عليه وقد احمرت آماق عينيه وقال له اذهب يا وجه العرب قبل ان تهلك وتعطب فقال الى اين اذهب يا خالي وانت بغيتي وآمالي فوالله لاقتلنك في هذا اليوم واطفي من بين القوم نارك لانك طغيت وتجبرت وافتريت فاغتاظ الزير من هذا الكلام والتهديد والتقاه بقلب شديد وجرى بينهم وقائع واهوال تشيب رؤوس الاطفال ولما طال المطال قال له الزير امام الفرسان ارجع ابن اختي بأمان قبل ان يحل بك الهوان وتلحق بأخيك شيبان فارجع الى اهلك وامك وارسل لي ابطال قومك مع جساس عمك فلم يجبه شيبون بكلام بل كان يقاتله كسبع الآجام وكان الزير كلما حكم عليه الضرب في الحرب يتمنع عن اذاه شفقة عليه واكراما لخاطر والديه وما زال يقاتله ويداريه وينصحه بالرجوع عما هو فيه الى ان اقبل الظلام فعند ذلك توقف القتال ورجعت الفرسان عن ساحة الميدان ثم التقوا في اليوم الثاني وكان اول من برز الى ساحة الميدان الامير شيبون فصاح وطلب مبارزة المهلهل فالتقاه الزير ونهاه عن قتاله فلم ينتصح بما قاله بل تقدم اليه وحمل عليه واشار يتهدده بقوله:

قال شيبون ابن همام الامير ... فارس الفرسان في يوم النكير
استمع يا زير قولي وافتهم ... لا بد من قتلك يا وغد حقير
ما بقا لك مخلص منـي ولا ... من حسامي اليوم لو انك تطير
ثم آخذ ثار اعمامـي الجميع ... كم بطل صنديد صيرته حقير
ليس لك قلب على اختك يحن ... واولاد عمك ذاقوا منك النكير
كم قتلت منهم خلـق كثير ... كم يتمت مـن طفل صغـير
سوف ترى حربـي يا مهلهل ... في لقا الابطال ما لي نظـير
قد اخبروني يوم جئت بانك ... يا قليل العقـل لركب حمير
ما يقتني الحمار الا الحمار ... ما انا مثلك ولا عقلي صغـير
هات سيفك ورمحك والثياب ... هات ابو حجلان كالطير يطير
حتى اقيلك من حسامي والقنا ... وتطلب الجيرة ومثلي من يجير
ان كنت لا تسمع فهذا حربنا ... ويكون النصر من ربي القدير

فلما سمع الزير هذا الكلام كان عليه اشد من ضرب الحسام اجابـه بقولـه :

صبر ابو ليلى المهلهل ثم قـال ... انت يا شيبون ما عاد لك مجير
هرجت يا شيبون في قولك كثير ... الجحش لا يحمل كما يحمل بعير
لو سقيت الجحش من سكر وسمن ... ولو [illegible] بالشعير
لا عاش اصله ما ينفع منه الجميل ... اكيد هو مجنون من يقتني الحمير
وانت يا شيبون او لم تكن حمار ... ما رجعت الى حربي اليوم تغير
فاني قد عفوت عنك البارحـة ... لاجل امك وابوك نعم النصـير
وانت تعلم انني سبع الرجـال ... قتلت منكم اثني عشر الف امير
هــذا غير التوابـع والغريب ... تاه في هذا العدد ناس كثـير
كم نصيحة نصحتك لـم تنتصح ... جاهل سوف تقع في وسط بير
لم يبق لي ذنب انا باك مني ضرب ... بهدم الابدان ما عاد لك مجـير
دونك الميدان يا شيبون قـم ... شد عزمك لا يكن باعك قصـير

فلم يلتفت شيبون الى كلامه ولا اكترث بالتوبيخ والملام بل حمل عليه حملة اسد الغاب واخذ معه في الطعن والضراب فالتقاه المهلهل بالعجـل بقلب اقوى من الجبل واشتد بينهم القتال وعظمت الاهوال حتى تعبت من تحتهما الخيل وارتخى منهما العزم والحيل وملا على بعضهما كل الميل . هذا والزير يطاوله ويحاوله واستمرا يتقاتلان ثلاث ساعات من الزمان حتى استعاذت من قتالهما مردة الجان واستعظمته الشجعان وشخصت اليهمـا عيون الفرسان وكان شيبون يود ان يقتل خاله ويعدمه الحياة ويفتخـر

بقتله على اهله واقرباه الى ان اغتنم الفرصة فهز الرمح وطعنه بين ثدييه فخلى المهلهل عنها فراحت خائبة بعد ان كانت صائبة فزاد الزير غضبـــا وتوقد قلبه والتهب وصمم ان يسقيه كاس العطب وجذب سيف حكمون وقال اليوم اريك يا مجنون كيف الضرب يكون لاني نصحتك فما انتصحت ولقد خسرت وما ربحت ثم تقدم اليه وهجم عليه وضربه على مفرق راسه فشقه الى تكة لباسه فوقع على الارض يختبط بعضه ببعض فلما رآه المهلهل وهو قتيل يتململ ندم على ما فعل فتحسر وهطلت من عينيه الدموع فلما قتل شيبون احمرت من بني مرة العيون وزادت عليهم الحسرات وايقنوا بالهلاك والشتات ولكنهم اخفوا الكمد واظهروا الصبر والجلد وقاتلوا قتال الاسود وطلبوا الرايات والبنود والتقاهم الزير بالعساكر وضرب فيهـــم بالسيوف البواتر واحاطهم احاطة الخواتم بالخناصر وقتل منهم مقتلة عظيمة واصاب غنائم جسيمة فلما راى جساس ضعف حاله وقتل فرسانه واجناده فولى يطلب الهرب خوفا من العطب وتبعته فرسان العرب وقد ابصروا في ذلك اليوم العجب من قتال بني تغلب فرجع عنهم الزير وهو حزنان على فقد ابن اخته شيبون فنزل في الصيوان مع الامراء والاعيان ولما جلس في الصيوان انشد هذه الابيات وهو من الحزن على اخر رمق :

الزير انشد شعرا من ضمايره	العز بالسيف ليس العز بالمـــال
دع المقادير تجري في اعنتهـــا	ولا تبيتن الا خالـــي البـــال
ما بين غمضة عين وانتباهتهـــا	يغير الله مـــن حال الى حـــال
عم الذي انت مغمور بنعمتـــه	حال الذي انت من اضراره خالي
فكن مع الناس كالميزان معتدلا	ولا تقولن ذا عمـــي وذا خالي
لا يقطع الراس الا من يركبـــه	ولا ترد المنايـــا كثرة المـــال

فلما فرغ الزير من كلامه انطرح على فراشه من حزنه على ابن اخته ولما بلغ ابو همام وامه ضباع قتل شيبون احترق قلبهما عليه لانه كـــان ابنهما الوحيد بعد اخيه شيبان وكانت الفرسان قد اتت بجثته اليهما فبكيا بكاء شديدا ومزقا الثياب وبعد ذلك دفنوه في التراب وفي اليوم الثاني المهلهل الخبر فركب في ابطاله وفرسانه ولما التقى الفريقان برز الامير همام الى معركة الصدام وطلب مبارزة الزير وكان غير صفاته ووضع لثاما على وجهه حتى لا يعرفه احد فبرز اليه المهلهل وهو لا يعلم بانه الامير همام فاقتتلا ساعة من الزمان وكان همام قد ضرب الزير بالحسام قاصدا ان

يسقيه كاس الحمام فخلى الزير عنها فراحت خائبة ثم هجم عليه وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره فسقط عن الجواد كانه طود من الاطواد فالتفت وقال للزير آه يا مهلهل لقد قتلت ابن اخيك نهار امس واليوم تقتل صهرك همام فلما سمع الزير هذا الكلام تنغص عيشه وزاد همه وكدره وقال له يا همام قال نعم قال اما عاهدتني انك لا تقاتلني ابدا وانا نكون اصحاب على طول المدى فلماذا خاطرت بنفسك وطلبت قتالي وانت تعلم بأنك لست من رجالي فقال لقد جرى القلم بما حكم فانقضت حياتي ودنت وفاتي وهذا الامر مقدر بامر رب البشر وما دام الامر كذلك يا فارس فكف اذاك ودواهيك واجعلني فدى اخيك فقال والله يعلم كم عز علي فقدك ولا يطيب لي عيش من بعدك لكنني لن اكف الحرب والصدام حتى لا يبقى من بني بكر شيخ ولا غلام ثم انه بعد هذا الكلام هجم على المواكب ففرقها وطعن في ابطالها فمزقها فتأخرت عنه الفرسان ورجعت الى الاوطان وهي في حالة الذل والهوان ولما بلغ ضباع قتل بعلها غابت عن الدنيا وقد عظم مصابها وسارت الى بني تغلب ودخلت على اخيها الزير وقلبها يلتهب وقالت له بكلام الغضب هكذا تفعل يا اخبث العرب تقتل اولادي وبعلي وتحرمني اهلي وتتركني حزينة طول الدهر اقاسي الذل والقهر هكذا تكون الاخوان الذين يدعون الفضل والاحسان فوحق الاله القادر الفاحص القلوب والضمائر . ان موتي الذ عندي من الحياة وافضل فانك نسيت الجميل والمعروف وقابلتني بالغدر والمتلوف بعد ان خلصتك من الحريق وكشفت عنك ذلك الضيق . فلما سمع الزير منها ذلك ركب الامير همام لقتال الزير وتبعه جساس وباقي الابطال والفرسان وبلغ الخطاب اظهر الحزن والاكتئاب وتلقاها بالاكرام والترحاب ثم اعتذر لها بالغلط واخذ يطيب خاطرها ويعزيها عما فرط وامرها ان تسكن عنده بخدمها وحواشيها فامتثلت كلامه واقامت في بيت اخيها ولما عظم الامر على جساس وبني بكر وكثر فيها القتل والسبي ارسلوا يستنجدون اهل اليمامة فأمدوهم برجل منهم يقال له الفند بن سهل وكان من جبابرة الزمان وفرسان الاوان لا يبالي بالاهوال ولا يخاف من كثرة الرجال وكان يلقي نفسه على المخاطر ويصيد الاسود الكواسر فسار الى مساعدة القوم من ذلك اليوم وقد انتخب من الشجعان سبعين فارسا مثل العقبان يقاربوه بالشجاعة والفروسية والهمة العلية وكانت اهله قد كتبت اليهم تقول قد امددناكم بعشرة الاف فارس من الفحول وبهم تنالون من اعداءكم

المأمول فلما قدموا الى تلك الاطلال ورآهم جساس وباقي الابطال فاعتراهم الانذهال لانهم لم يروا اكثر من سبعين تحت راية الفند الاسد العربند فقالوا اين جماعتكم فقال الفند انا سبعة الاف فارس واصحابي بثلاثة الاف مداعس فتبسموا من هذا الكلام والتقوهم بالاكرام والاحترام وذبحوا لهم النوق والاغنام ونصبوا لهم المضارب والخيام ثم استعدوا للحرب وسمع بهم المهلهل فزحف من يومه بفرسان قومه فالتقاه بنو بكر في مكان يدعى عقبة الريحان فلما اقتربت العساكر قال الحارث بن عباد لجساس قائد القواد هل تطيعني ايها الامير فيما اقول واشير قال قل ما بدا لك فاني لا اخالف مقالك قال اعلم ان القوم مستخفين بقتالنا لضعفنا وقلة رجالنا فقاتلهم بالنساء والرجال فتبلغ القصد والآمال فقال جساس وقد اعتراه الانذهال ما معنى هذا المقال وكيف تقاتل النساء مع الرجال قال انك تحلق رؤوس الفرسان وتجمع البنات والنسوان اللواتي اتصفن بالشجاعة وقوة الجنان فتحملهن الماء بالقرب وتعطي كل واحدة مطرقة من خشب وتصفهن خلف الرجال وقت الحرب والقتال فان هذا مما يزيد الابطال نشاطا في ساحة المجال فاذا جرح منكم احد يسقينه الماء فاستصوب هذا الــــراي واستحسنه وفي عاجل الحال جمع النساء والرجال وعرض عليهم هــذا الحال فأجابوا امره بالامتثال ولم يبق يوم ذاك من بكر احدا الا حلـــق واستعد الا رجلا من الفرسان اسمه ربيعة بن مروان وكان قصيرا دميمــا وفارسا خطيرا فقال يا قوم انني دميم قصير واذا حلقت راسي اصير معيرة عند الصغير والكبير فادعوا لي ولامتي يا سادات العرب وانا ابلغكم الارب واقتل لكم فوارس من تغلب فأجابوه الى ما طلب .

قال الراوي ولما التقت العساكر وتضاربت السيوف والخناجر وانقلبت تغلب على بكر كليوث الآجام والهبوهم بضرب السيوف على الهام فارتدت بنو بكر طالبة الانهزام فأشهر جساس وفي يده الحسام وصاح فيهم بصوت كالرعد في الغمام وقال ويلكم ارجعوا وقاتلوا بقوة وعزيمة فان الموت افضل من الهزيمة فاجتمعت بنو بكر بعد الانفلال الى الحرب والقتال وضمــوا كتيبة واحدة وطلبوا المكافحة والمجادلة وصاح الفند وابن سهل والقى نفسه بساحة القتال وهو ينخي ويصيح على الرجال ففرق المواكب واظهر بقتاله العجائب فلما رآه المهلهل برز اليه وطلب قتاله فالتقاه الفند بن سهل بقلب كالحديد وهجم عليه هجوم الصناديد وما زال في قتال شديد ما عليه من مزيد الى وقت الزوال فتفرقا عن الحرب والقتال وافترقت العساكر عن

بعضها البعض ونزلت في جوانب الارض وكان ربيعة لم يحلق راسه من بني
بكر فقد قاتل قتالا شديدا حتى ائخن بالجراح من ضرب السيوف وطعن
الرماح فوقع طريحا بين القتلى على وجه الفلا فمرت عليه نساء بني بكر
فوجدته ذا لحية طويلة فضربته بالمطارق واوردته المهالك فضربت به الامثال
وتحدثت به السنة الرجال ولما اصبح الصباح واشرق بنوره ولاح ركبت
الفوارس ظهور الخيول واعتقلوا بالسيوف والنصول وتقدموا الى ساحة
الميدان للضرب والطعان وكان المهلهل في اول الجحفل كانه قلة من القلل او
قطعة فصلت من ذيل جبل فصاح وحمل على جيوش الاعداء كليث الآجام
وضرب فيهم بالحسام وتبعه امرؤ القيس بن ابان واشتد بين الفريقين القتال
وكثر القيل والقال وتقطعت الاوصال وجرى الدم وسال وكان يوما شديد
الاهوال لم يسمع بمثله في الاجيال كثر فيه القتال والجراح وتمددت فيه
الفرسان على وجه البطاح وارتجت الارض من صهيل الخيل وقعقعة
السلاح وهول الكفاح وكان جساس قد حمل على مواكب المهلهل وقاتل
حتى استقتل وفعلت فرسانه مثلما فعل وبذل جساس في ذلك اليوم غاية
الجهد وهجم بقومه على الرايات والبنود هجوم كواسر الاسود واشتد
على المهلهل القتال واحاطت به الاعداء من اليمين والشمال وهو يقاتل
ويمانع وينخي رجاله على الثبات ويدافع حتى جرح في ثلاثة مواضع فزاد
عليه الحال وازدحمت حوله الرجال وتأخرت عن ساحة المجال خوفا من
الهلاك والوبال وانكسرت بنو تغلب في ذلك النهار اشد انكسار وتفرقت في
البراري والقفار واستظهرت بنو بكر غاية الاستظهار وقتلت من بني تغلب
جماعة من الامراء والاعيان والصناديد الفرسان ومن جملتهم ليث الميدان
وزينة الشجعان امرؤ القيس بن ابان وكان من الاعيان وصيته محمود
مشكور وهو غير الشاعر المشهور فبكى الزير عليه وكان يحبه ويميل اليه
ورجع بنو بكر الى الديار بغاية الفرح والاستبشار على ذلك الانتصار .

اما المهلهل فقد زاد حنقه على بني بكر وبات تلك الليلة على مقالي الجمر
وفي الصباح جمع الفرسان والابطال وتجهز للحرب والقتال فالتقته بنو بكر
بقلوب كالجبال وجرت بينهم وقائع وأهوال لم يسمع بمثلها في سالف
الاجيال واستمر الحال على هذا المنوال مدة عشرة ايام وكان المهلهل قد
انتصر في اكثر الوقائع وقتل جماعة من فرسان المعامع ولما كثر القتل بين
الفريقين اتفقوا على توقيف الحرب مدة شهرين فافترقت الفوارس عن
بعضها ونزلت كل فرقة بأرضها . قال الراوي ولما قتل كليب كما تقدم الكلام

كانت الجليلة حاملة فلما طردها الزير الى بيت ابيها وسكنت عند جساس اخيها فولدت غلاما وسمته الهجرس ولقبوه بالجرو فكان مع اخواله بني مرة واولادهم وكان خالد يحسن اليه ويشفق عليه وكان الغلام قد حب خاله جساس دون باقي الناس فلا يدعوه الا اباه ونشأ الغلام ذا عقل وادب وهو محبوب من جميع العرب لفصاحته وبراعته وقوته وشجاعته فكان يركب ظهور الخيل ويتعلم عليها الفروسية في النهار والليل فبرع واشتهر وعلى فرسان القبيلة افتخر ولما بلغ عمره خمسة عشر عاما زاد شهرة وارتفع مقاما فرآه جساس في بعض الايام وهو كأنه ليث الآجام والشرر طائر من عينيه ولا يقدر احد عليه فانذهل واندهش وخاف منه وارتعش وكان كثيرا ما يتأمل في امره ويخاف من سطوته وشره لانه قتل اباه بالامس وتركه يتيما مدى الدهر واتفق ذات يوم ان الجرو ركب في جماعة من الشبان واخذوا يتعاطون الجريد في الميدان وكان من جملة الغلمان عجيب ابن الامير جساس وكان شديد البأس فطعن عجيب الجرو طعنة فمال عنها فراحت خائبة ثم انه تقدم نحو عجيب وطعنه جريدة اصابته فألقته عن ظهر الجواد الى الارض فنهض غاضبا وشتم الجرو واهانه بالكلام وقال اهكذا تفعل يا ابن اللئام بأبناء السادات الكرام واشار يهدده بهذا الشعر :

يقول عجيب من قلب موجع — الا يا رفقتي حالي عجيب
ضربني الجرو منه جريدة — فأرماني وصيرني كئيب
ولم يعلم بأني خير ماجد — ولد جساس قرم مستهيب
ولولا عمتي لقطعت رأسه — واطرحه على الغبرا قليب
فهذا ولد كليب الاعادي — ولا ضد الكلاب الا القضيب
دعوه يروح عنا لا يماطل — ويذهب مسرعا قبل المغيب

فلما فرغ عجيب من نظامه وفهم الجرو فحوى كلامه اجابه على شعره قائلا :

يقول الجرو اسمع يا ابن خالي — كلامك ليس يسمعه اديب
تقول اليوم تقتلني بسيفك — وتتركني على الغبرا قليب
اذا ابصرتني يوما فريدا — فتقتلني بسيفك يا عجيب
فانزل عن جوادك يا ابن خالي — وافعل ما تريده عن قريب
وافعل ما تريد اليوم فينا — فاني لا اخافك يا عجيب

فلما فرغ الجرو من كلامه واذا بسلطان اخو جساس اقبل عليهما في

ذلك الوقت فوجد الدم يسيل من ابن اخيه فلما فهم المسألة اغتاظ غيظا شديدا وشتم الجرو وقال لولا كرامة امك لقطعت راسك واخمدت انفاسك فقال يا اخي انا بين يديك فافعل ما تريد ثم هطلت عيناه بالدموع وتنهد من فؤاد موجوع وسار الى امه واعلمها بما جرى وطلب منها الرحيل من تلك الاوطان فتكدرت امه واجابته الى طلبه ثم صبرا الى الليل فتركا المضارب والخيام وسارت تحت جنح الظلام في جماعة العبيد والخدام وجدا في قطع البراري والآكام مسافة عشرة ايام واتفق في اليوم الحادي عشر انهما التقيا بشيخ في ذلك البر الاقفر وهو يقطع البر الفسيح على فرس تسبق الريح وبمعيته عشرة ابطال من صناديد الرجال وكان قد خرج لصيد الوحوش والغزلان وهو راجع الى الاوطان فتقدم الجرو وسلم عليه فرد عليه سلامه وقال له ايها الفتى الماجد من اين اتيت والى اين قاصد فقال الجرو طردوني اهلي وربيت يتيم وانا طالب انسان كريم حتى التجيء اليه واقيم عنده فقال الشيخ اذا كان الامر كما تقول فشرفني الى اطلالي وأنا افديك بروحي ومالي واشار يقول :

يقول الامير منجد من قصيد	الا يا قاصدا نيل المآرب
شرف منزلي وأمر عبيدك	يردون الاباعر والنجائب
بكم قد حلت البركة علينا	وزال الشر عنا والمتاعب
فمثلي ما تلاقوا اين سرتم	وعندي تبلغوا كل المطالب
انا منجد من نسل الاكارم	ابي وائل وما فينا معاتب
الوف الوف تخدمني وتخضع	لامري في المشارق والمغارب
وانت بقيت بعد اليوم اني	ولست انا في قولي بكاذب

وكان هذا الشيخ اسمه منجد ابن الامير وائل وهو خال كليب والزير وقد كنا ذكرنا عنه في اول بأنه من بعد قتل ربيعة ابو كليب استخدم مع اخوته الثلاثة عند التبع في بلاد الشام ولما قتل التبع ولى وهرب لانه كان يبغضه دون اهله وعشيرته فلما فرغ من شعره ونظامه وفهم الجرو فحوى كلامه فرح واستبشر ورجع الى عند امه على الاثر واعلمها بما جرى وكان ثم انهم ساروا معهم الى الاوطان ونصبوا المضارب والخيام فاكرمهم منجد غاية الاكرام وانزلهم في أعز مقام وكان لمنجد عشرة اولاد ذكور كأنهم البدور فائتلفوا الجرو واحبوه وكانوا لا يفارقوه وعرفت امه الجليلة الامير منجد حق المعرفة ولكنها كتمت الامر عن زيد وعمر خوفا من العواقب

وحلول النوائب فاجتمعت بابنها الجرو وقالت له اذا سألك احد عن اسمك فقل اسمي الهجرس ولا تقل الجرو فقال ان الاسمين بمعنى واحد فما هو مرادك بذلك فقال ان الهجرس كلب الصيد فانه اصلح من الجرو ابن الكلب وانت امير وابوك كان من الفرسان المشاهير ومن ذلك اليوم سمي الهجرس وغلب عليه هذا اللقب بين العرب وكانت امه في قلق عظيم فاجتمعت ذات يوم بشيخ عبيده وكان اسمه صبيح وأشارت اليه بهذا النظام :

تقول الجليلة بدمــــع سجام ... ايا صبيح اسمع لي الكــلام
فهذا الشيخ الــذي تــراه ... مكيد الاعادي بضرب الحسام
سمي منجد صميدع عنيــد ... ولد وائـــل وافــي الذمـام
فهو امير ابن امــير وحولـــه ... عساكر كثيرة كفيض الغمـام
فهذا خال كليب الامـــير ... مع سالم الزير قــرم همام
فهو خالهم قدر عرفته سريع ... بطل همام فــي يوم الزحـام
وهو خال زوجي ولكن عدو ... كيف العمل الآن صرنا نضام
واصل العداوة كليب الامـير ... قتل اخوته في دمشق الشام
قتل التبــع واخذ ثأر ابــوه ... اهلك اخوة منجد ونال المرام
ونحن الان نزلنــــا عليــه ... عرفته وقد اعترانــــي سقام
اني اخاف على ابني حقيــق ... يهبنه ويلدعى دمــه سجــام
عدوك ايــاك تركــن اليــه ... ولو انــــه سقاك المـــدام

فلما فرغت لجليلة من شعرها ونظامها وفهم صبيح كلامها قال لها اين نتوجه الان وقد صار لنا مدة من الزمان ومن الصواب ان نكتم امرنا عن كل انسان ليفرجها علينا الرحمن واستمروا مدة طويلة وهم في أرغد عيش واحسن حال وفي بعض الايام اغار على الامير منجد بعض ملوك العربان في ثمانين الف عنان فالتقاه منجد في عسكر جرار وظل معه في صــــدام وخصام شهور وايام حتى انكسر الامير منجد عدة مرات وآل امره الى الدمار فلما شاهد الجرو ما حل بمنجد من الاهوال اخذته الحمية فبرز الــى ساحة المجال فبارز الابطال وقاتل الشجعان واظهر الغرائب والعجائب ففرق بحملته الصفوف ومزق الكتائب وكسر ذلك العسكر وفعل فعالا تبقى وتذكر ما دامت الشمس والقمر وعند رجوعه من معركة القتال بالنصر والاقبال شكره منجد على تلك الفعال وقال له مثلك تكون الرجال لقد حميت الحريم وطردت الغريم وخلدت لك ذكرا جميلا على طول السنين وعند وصولهما الى سراية الاحكام وجلوسهما في الديوان قال له منجد بحضور السادات

والاعيان مثلك تكون الفرسان فاعلمني عن حسبك ونسبك وعن قومك
واجابه الجرو بهذا القصيد :

ابا فخر الاماجد في الرجال
فاسمع يا ملك فحوى مقالي
انا اسمي اليتيم ابا مسمى
ولا اعرف ابي ولا خوالي
واني قد سألت امي مرارا
فتسكت ولا ترد لي سؤالي
تقول ابوك شاليش بن مرة
قتله الزير في يوم النزال
فاطلب من اله العرش ربي
لاخذ الثار منه بالقتال

فلما فرغ الهجرس من كلامه زاد منجد في احترامه ونهض على الاقدام واعتنقه امام السادات الكرام وقال له انت من بني مرة اصحاب الشجاعة والقدرة فعربك من عربي وتبعك من تبعي وما ضاع نظري فيك فاطلب من الله ان يحفظك ويبقيك وينصرك على جميع حسادك واعاديك من ذلك الوقت زاد في اكرامه ورفق على جميع اقوامه واقامه ملكا على تلك الديار وصار له مزيد الوقار والاعتبار عند الكبار والصغار وكان لمنجد بنت بديعة الجمال متصفة بالادب والكمال وكانت على رأي صائب لا يوجد مثلها في الاعاجم والاعارب اسمها بدر باسم فزوجه اياها وتمتع الجرو بحسنها واقام في ارغد عيش وأحسن حال وهو يحكم على تلك الاطلال وقد احبه جميع الرجال اما جساس فانه بعد رحيل اخته من الديار زادت به الاكدار وكان كثيرا ما يتذكرها في الليل والنهار فاتفق في بعض الايام بينما هو جالس في الخيام دخل عليه شاعر فسلم عليه واخذ يمدحه بهذا القصيد:

قال جابر في بيوت صادق
انت يا جساس رب المكرمات
سمعت بصيتك انا يا ذا الامير
في الكرم والجود يا فخر الذوات
انت ملك البلاد جميعها
حاكما الارض من كل الجهات
قاتل الضد في يوم الوغى
مكرم للضيف سنة المحلات
انت يا جساس ملك البلاد
مع اخوتك وشقايقك السيدات
لولاكم ما كنت جئت لارضكم
ما كنت فارقت العيال مع البنات
وتركت اختي يا ملك واولادها
وزوج اختي يا ملك ذا العام مات
اولاد اختي يا ملك سبعة ذكور
عند اولادي واهلي ثبات
جور هذا الدهر في الدنيا عجيب
كم له في كل يوم تقلبات

فلما فرغ جابر من نظامه وفهم جساس فحوى كلامه امر له بالف دينار

واعتبره غاية الاعتبار والتفت الى اخيه سلطان وقال له امام السادات والاعيان اسمعت كلام هذا الشاعر الذي يدور بين القبائل والعشائر ويمدح السادات والاكابر كيف ذكر اخته في شعره ولم ينسها طول دهره ونحن سلاطين الزمان وملوك العصر والاوان نترك اختنا تغضب منا وتبعد عنا ولا نعلم اين ذهبت ولا اي قبيلة طلبت فماذا تقول عنا دول المماليك اذا سمعت ذلك قالوا يجب ان نقتفي اخبارها ونعيدها الينا معززة ثم بكى امام جلسائه وبكوا اخوته لبكائه وندم سلطان على ما فعل واستعظم ذلك العمل ثم التفت جساس الى ذلك الشاعر وقال له انت تطوف حلل العرب وتمدح الملوك واصحاب الرتب فأريد ان تستقصي اخبار الجرو وامه الجليلة وتعلمني الى اي حلة قصدوا وبأي قبيلة اتصلوا فاذا اتيتني بالخبر بلغتك القصد والوطر فأجاب الشاعر امره وامتثل ثم سار على عجل يطوف القبائل والحلل ويستقصي عن حقيقة امرهما الصغار والكبار حتى سمع بخبرهما ووقف على حقيقة امرهما فقصدهما الى ذلك المكان واجتمع بهما في الصيوان وحدثهما بما سمع في حقهما من جساس وسلطان ثم اشار يمدح الجرو بهذا القصيد :

يقول جبر من قلب حزين	فدمعي سال من وسط الآماق
ادور على القبائل والعشائر	لاحظي بالمكاسب والنياق
اصغي يا امير الى كلامي	فانت ارجل فرسان السباق
فصيتك شاع في كل القبائل	فمن يمن الى ارض العراق
ومالك في البرايا من شبيه	ونجمك فوق راس المجد راق
سألت الله ان يحفظ جنابك	على طول المدى والدهر باق
ورحنا من حماه لعند خالك	ملك جساس سلطان الآفاق
فأهدانا وقد انعم علينا	وقلبه من بعادك باحتراق
وسألني لاكشف اين انتم	ليجمع شملكم بعد الفراق

وكانت الجليلة تسمع هذا الشعر وهي خلف الحجاب والستر فما هان عليها ان تسمع بذكر اخوتها لانهم كانوا سببا لغربتها فأمرت كبير العبيد ان يوقف الشاعر عن اتمام القصيدة وان يكتم خبرها عن الجميع ثم امرت له بألف دينار واعطاه الجرو مثل ذلك ففرح الشاعر واستبشر ورجع على الاثر وأعلم جساس بذلك الخبر فأرسل في الحال اخوه سلطان في جماعة من الابطال ليأتوه باخته الجليلة وابنها الجرو من تلك الاطلال فلما اقترب

سلطان من تلك الاطلال ارسل بعض الفرسان ليعلم منجد بقدومه فخرج في جماعة من فرسانه فالتقاه احسن ملتقى لانهم كانوا اقارب واصدقاء ونزله في سراية الاحكام وذبح له النوق والاغنام وأكرمه غاية الاكرام وفي ثاني الايام اجتمع سلطان باخته الجليلة وولدها الجرو واعتذر لهما عما فرط منه وطلب اليهما الرجوع الى الديار وشدد عليهما في ذلك غاية التشديد فأجابه الى ما طلب واعلم الجرو الامير منجد بانه يريد الرجوع الى اهله وعشيرته مع امه وزوجته ومن يلوذ من جماعته لان نفسه اشتاقت الى الوطن فقال منجد والله يا امير يعز علينا فراقك ولا زالت ارواحنا في كل وقت تشتاقك ولكننا لا نقدر ان نمنعك عن اهلك واصحابك وبني عمك واحبابك ثم اعطاه مائة ناقة محملة من نفاض الاقمشة والذخائر ومائة جواد وغير ذلك من المعان والجواهر ومائة عبد ومائة جارية واركب ابنته في هودج كبير وسار لوداعهم مسافة نصف يوم ثم رجع الى الديار وسار الهجرس مع امه وزوجته يقطعون القفار حتى وصلوا الى منازل بني مرة فالتقاهم جساس بالفرح والمسرة وامر بذبح الذبائح واطعام الغادي والرائح واشار يقول :

لما قال الفتى جساس صادق ابا مرحبا بك يا ابن اختي
ففيكم قد حلت البركة علينا وضاء الحي في قربك الينا
وامك يا فتى عيني وروحي وعمرك يا جليلة ما فرحت
فابنك قد عدا كالسبع كاسر فان نحرو للاعداء كاسر
بيوم الحرب والاهوال جاسر اله العرش ارجعه ليختي
فلا تعتب على سلطان خالك ولا قوله ليخطر قط ببالك
فلا ابني ونحن مثالك اناسا حكمك في ملك خالك
انا ابكي على المرحوم بيك قتله الزير في ربعك وحيك
فقم اركب يا ابن اختي واشخت للمهمهل اي شختي
سألت الله ان تأخذ بثارك وتقتله بسيفك او سنانك
مرادي منك ان تكشف لعارك وتحرقه يا جريري بنارك

فلما فرغ جساس من شعره ونظامه تبسم الجرو من كلامه وقال له كن مطمئن الخاطر يا خالي. هذا ما كان من الجرو واما الزير الفارس الدعاس فانه بينما كان راقد ذات ليلة اذ رأى في منامه ولذيذ احلامه اخاه الامير كليب وهو يعاتبه بهذه الابيات على اخذ الثار وكشف العار :

تنام الليل كله يا مهلهل وثاري ما قدرت على وفاه
وعظمي ذاب حتى صار كحلا وجساس بن مرة بالحياه

فاجابه الزير بقوله :

امير كليب مـا قصرت يومـا	اخذ الثار مـن قوم البغـاة
فقم اسال بناتـك يا حبيبي	على طعني وضربي بالعـداة

وبنات كليب شاهدن اباهن في نفس الوقت فاستيقظن وايقظن عمهن قائـلات :

يقولون اليتامى يا مهلهـل	اتانا كليب يستنجـد اخاه
كليب قام مـن وسط المقابر	وصار كليب في وسط الحياة

فاستطرد فراى البنات حواليه فأخبرنه بالامر فقال وانا ايضا رايت اباكن في المنام واكد بما سمعه ورآه فبكين بكاء شديدا فقال الزير المنام يدل على امر عجيب سوف يقع عن قريب فطلب رمالا وقص عليه ذلـك المنام فضرب الرمل والد البنات من الامهات حتى عرف حقيقة الخبر فقال له لك البشرى يا فائق الصدام فان جساسا سوف يقتل بعد ايام من فارس يظهر من لحمك ودمك واشار قائلا :

يقول بشير اسمع يا مهلهـل	ايا سالم فابشر زال همـك
اتاك النصر من رب البرايـا	اله العرش بالخيرات عمـك
وقد ظهرت رسوم الرمل عندي	سيظهر شخص من لحمك ودمك
فيقتل في الوغى جساس حالا	وانت تزوجه ويزول همـك
وتهلك بعـده اولاد مـرة	وتسقيهم جميعا كاس سمك

فلما سمع المهلهل هذا الشعر فرح واستبشر وقال ان تم هذا الكلام ابشر مني ببلوغ المرام ثم احسن اليه ووعده بكل جميل ولما اصبح الصباح واشرق بنوره ولاح ركب المهلهل الى الحـرب والكفاح وتبعته الابطـال والفرسان وركب ايضا الامير جساس بالرجال والفرسان واقتتلوا طـول ذلك النهار وقتل المهلهل منهم عددا كبيرا وما زالوا في قتال الى ان دقت طبول الانفصال فافترقت الطوائف عن بعضها ونزلت كل فرقة بارضها واما الهجرس فانه لم يركب مع جساس في ذلك اليوم فاجتمع جساس باخته الجليلة في المساء وقال لها ان ابنك لم يقاتل معنا ولا اعلم السبب فاساليه واعلميني بما يجيب فسالته عن عدم خروجه الى الحرب فاجابها ، قال

الجرو اعلمي يا اماه انه لا يلقاني سوى حصان خالي جساس الاخرج فان وهبني اياه فانا اعطيه عوضه راس المهلهل فان قبل بهذا الطلب بلغته غاية الارب فرجعت الجليلة على الاثر واعلمت اخاها جساس بهذا الخبر فوهبه الحصان وقال له ان انت قتلت لنا هذا الشيطان تكون علينا ملك ونحن لك غلمان واعوان ففرح الجرو بهذا الجواد وضمن لجساس قتل الزير امام الفرسان والقواد ولما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح ركب الجـــرو الحصان المذكور وتبعه كل فارس مشهور وركب الزير وطلب مبــــارزة الفرسان وقال ابن جساس الذليل المهان فليبرز الى الميدان وقبل ان يتم كلامه برز الجرو اليه واشار يقول :

يقول هجـــرس يا مهلهـل	ان عزرائيـــل اقبـــل
اين تغدوا اليـــوم منـــي	سوف تلقانـــي وتقتـــل
لا تحسبنـــي بظنـــك	انـــي كمن قـــد جـاك اول

فلما فرغ الجرو من شعره حمل عليه وكان المهلهل قد مال قلبه اليه وتحركت جميع اعضائه باذن الله نحوه اما الهجرس فقصد قتله واعدامـه ليوفي لجساس ضمانه وكان الزير يبطل مضاربه بحسن اختباره وما كان قلبه يطاوعه على قتله ودماره وما زالا على هذه الحالة وهما في عــراك وقتال الى ان دقت طبول الانفصال وعاد العسكران من ساحـــة الميدان ورجع المهلهل الى الابيات واجتمع ببنات كليب واعلمهن بحديث الغلام وما جرى بينهما في معركة الصدام وكيف انه اشبه الناس بأخيه كليب في الصورة والحرب ثم قال لليمامة اعلميني هل كانت امك الجليلة حاملة لما ذهبت الى بيت ابيها فقالت نعم يا عمي لها نحو شهرين ولكن ما هو معنى هذا السؤال فأجابها قائلا :

يقول الزير ابو ليلى المهلهـل	مريع الخيل ان قصدت الينا
يمامة اسمعي مني كلامـــي	ايا ست المـلاح المحسنينـا
برزت اليـــوم للميدان حتـى	اقاتـــل آل مرة اجمعينـــا
فبارزني فتى منهـــم غريب	لــه عزم كما الصخر المتينا
كمثل اباكـــم وجها وحربـا	فذكرني ليالــــي الماضيينا
انا قاتلتـــه واللـــه يلطف	وهو يطعن طعـــان القاتلينا
فحملاتـــه وطعناتـــه قويـة	تقـــد الصخر والزرد المتينا

فلما انتهى الزير من شعره أجابته اليمامة بقولها :

الا يا عم اسمع ما اقولــك لتفهم سالم الخبر اليقينـا
فامي حاملة مــن يوم راحت وحـق الله رب العالمينــا
ولا ادري وحقك ايش جابت أبنت ام غــلام يــا فعلينا
ثلاث اشارات لي فـي كليب اشارات بعقلــي راسخينـا
ركب يومـا بقرب آل مـــرة وقال ابا يمامـــة فانظرينـا
من التفاح اعطانــي ثلاثـة وقال بذي الثلاثـــة اضربينا
فانك سوف تحتاجـي اليهم اذا ظهـرت لنـا حقا بنونـا
ضربته بواحدة يا عـم راحت بضرب ركابـــه مثل الطحينا
وثاني واحـدة راحت برمحه وثالثهـــا خطفهـــا باليمينا
غـــدا انـزل واضربـه ثلاثة كفعل ابي ابا عمي الحنونـا
يكون اخي اذا سوى نظـيره وان خالف يكون غريب عنـا
عسى الله يدركنا بلطفـــه وينصرنا الـــــه العالمينـــا

فلما فرغت اليمامة من شعرها ونظامها وعمها يسمع فحوى كلامها قال لها متى فعل ابوك ذلك قالت قبل موته بشهرين عندما كنت على بير السباع وقد صممت الان ان ارافقك الى الميدان واضربه بالتفاح في ساحة الكفاح فان فعل كما فعل ابي يكون لا شك اخي وبه ابلغ اربي وفي ثاني الايام ركب الزير للحرب والصدام وركبت معه اليمامة وقد اخذت معها ثلاث تفاحات وكان الجرو ايضا قد ركب بالابطال فصال وجال وطلب الزير للحــــرب والصدام فبرزت اليه اليمامة بالعجل وقالت انا اقاتلك اليوم دون المهلهل فاستعظم الجرو ذلك ولم يعلم السبب ثم ان اليمامة اخذت التفاحــــة ولوحتها بيدها وضربته بها فاخذها برجله مع الركاب فطحنها طحنا ثم انها الخلق امنع الباطل واكشف الحق فأخذها بيده ووضعها في جيبه فلمـا شاهدت تلك الحال ايقنت انه اخوها لا محال فنزلت عن ظهر الجواد وتقدمت اليه والقت نفسها عليه وقالت اهلا وسهلا يا اخي يا ابن امــــي وابي قلت والله ابن الامير كليب دون شك ولا ريب وقد ربيت في دار العدا والحمد لله الذي عرفناك بعد طول المدى فقال لها انا ابن شاليش ايتها السيــــدة الحرة وامي الجليلة بنات الامير مرة فقالت انت ابن الامير كليب ثـــم انشدت قائلة :

قالت يمامة قولا من ضمايرهـا دمع العيون على الخدين هتـــان
اسمع اخي قصتي وافهم معانيها يا قاهر الخصم في وسط ميدان

ابوك خانه جساس ايا سندي ... بطعنة يا عظيم القدر والشان
بشاليش خالك كل الناس تعرفه ... أهل الأعارب من قاص ومن دان
وعمك الزير فخر الناس كلهم ... وفارس الخيل من عجم وعربان
فاسأل لامك ثم السر فاكتمه ... وارجع الينا فانت اليوم بأمان

فلما فرغت اليمامة من شعرها تأكدت عنده هذه القضية لان قلبه كان لا يميل الى جساس او الى احد من بني مرة وقد مال قلبه الى اليمامة فقال لها مرة لقد صدقت فاذهبي الان وفي الصباح اتبعكم الى الاوطان ثم توقف عن القتال ورجع الى عند امه واخبرها بما جرى وطلب ان تعلمه من هو ابوه من الفرسان وحلف لها بالاله الديان انها ان كتمت عنه حقيقة الخبر قتلها وجعلها عبرة لمن اعتبر فلما علمت بأن الخبر وصل اليه وما خفي عليه اعلمته بالقصة من اولها الى اخرها واوقفته على ظاهرها وباطنها واشارت تقول :

الجليلة قالت ابيات ... نار قلبي بالحشا زادت لظا
استمع يا ولدي فيما اقول ... يا ضيا عيني ويا كل المنا
انت روحي افتهم مني الكلام ... قول صادق ليس فيه من خنا
ابوك كليب صور المحصنات ... قاهر الابطال في يوم الوغى
واخوته خمسون اعمامك جميع ... كلهم فرسان طفاته قنا
اربعة من الست يا ابني حقيقي ... كل واحد سبع ربي بالفلا
منهم ابوك المسمى كليب ... والفتى الزير المهلهل يا منى
والفتى عدي مع دريعان ... هذه الاربعة اتوا منها سوى
ثم ست واربعين خلافهم ... من الجواري والسراري والاما
كلهم يا امير اعمامك لهم ... كل واحد الف يطعن في الوغى
وابوك كليب ساد على الجميع ... بالفروسية مع جود وسخا
جاء جساس خالك غدر فيه ... وتركني بعده مثل الاما
وطردني عمك الزير بعده ... فرحت الى اهلي دون الملا
قد كنت حامل فيك بعد ابيك ... فولدتك في تلك الحمى
رحت سميتك على اسم الكلاب ... صرت كانك سبع ربي بالفلا
وانا والله من خوفي عليك ... قلت اخي شاليش انه لك ابا
وانا اعلمتك افعل ما تريد ... ما بقيت اخاف يا فخر الملا

فلما فرغت الجليلة من هذا الشعر بكى الجرو بكاء شديدا ولام امه على كتمان الامر ثم انه صبر الى الليل فركب وسار بالعجل الى عمه المهلهل وصحبته العبد ابو شهوان الذي ارسله اليه الزير فارس الفرسان وفي

اثناء الطريق اراه العبد قصر ابيه وقبره المصلح بالذهب ، وعند وصوله الى عند عمه دخل عليه وقبل يديه وبين عينيه واجتمعت جميع شقايقه ومن يلوذ به من اهله واقاربه فوقعوا عليه وترحبوا به وكان الزير افرح الخلق به ولما استقر به الجلوس وطابت من القوم النفوس قال الجرو والحمد لله رب العالمين رب الكائنات الذي جمع شملنا بعد الشتات فوالله العظيم رب موسى وابراهيم لا بد لي من قتل جساس واجعله مثلا بين الناس لانه فجعني بأبي الذي كان تاجي وفخري وتركني يتيما طول دهري فقال له المهلهل لا بد من قتله على رؤوس الاشهاد وانت تكون الحاكم بعد ابيك على هذه البلاد ثم أنشد قائلا :

يقول الزير ابو ليلى المهلهل ... صفا عيشي ووقتي ما تعكر
اتاني السعد من رب البرايا ... وزال النحس لما السعد بكر
فقبل ظهوره كفا حزانا ... نقضي الليل في قلق ونسهر
على فقد الفتى الماجد كليبا ... غدر به جساس بالرمح تكبر
وفي دمه كتب بالبلاطة ... وصايا عشر أبيات وأكثر
يوصيني بقوله لا تصالح ... فسالم انت ان صالحت تخسر
واطرد للجليلة من حمانا ... عدوه كمبهما ما كان اخضر
طردناها وهي بالجرو حامل ... ومن يقدر على رد القدر
انا فيهم فتكت بحد سيفي ... ونلت القصد منهم بالمشهر
واني ما بكيت على كليب ... اخذت بثاره بالسيف مجهر
فأبكي حيث ما خلف ذكورا ... بنات الكل ما له طفل يذكر
ولما خالقي انطم علينا ... وجانا الجرو كالسبع الغضنفر
وبعد يا بني اسمع كلامي ... وزال النحس عنا ثم ادبر
صفا عيشي وقد نلت المقاصد ... انا عمك وانت الليث قسور
فقم اجلس على كرسي ابوك ... وفي احوال اخوتك تبصر

فلما فرغ الزير من هذا الشعر والنظام قال الجرو اطال الله بقاك ونصرك على جميع حسادك واعداك وبلغك قصدك ومناك انني والله يا عم في قلق وغم فلا تزول احزاني حتى آخذ بثأر ابي واقطع راس جساس واجعله مثلا بين الناس فشكره جميع اهله واعمامه وبعد ذلك سأله الزير ما هو الراي عندك يا ابن اخي فأجابه الجرو الراي عندي اني اغير عليكم نهار غد وآخذ نوقكم وجمالكم واخبره بأني اتيت اليوم بأموالهم ومواشيهم وغدا اجيء اليك براس الزير ثم ابرز لاحاربك وتكون انت واضع قربة من الدم تحت جانبك الايمن فاطعنك بالرمح فخذه تحت ابطك والقي نفسك على

فأجابه الجرو بهذه الابيات :

يا خالي اقصر عن كلامــك	دنى اجلك وقد اوفى حمامك
تقول اجونـي يا ابن اختي	الا يا جرو اعطينا زمامــك
قتلت كليب عدوانــا وظلما	اتظن بأنـني اسمع كلامـك
وبعد كليب اصبحت حاكـم	تسامى في الملا ايضا غلامك
طغيت وجرت في حكمك علينا	فاذني لم تعد تسمع كلامك
تريد اليوم منا ان نجيرك	فهذا ما تشوفـه في منامك

فلما فرغ الجرو من كلامه توسل جساس اليه ان يعفو عنه وقال بالله فاتركني لوجه الواحد القيوم فقال الجرو لا بد من قتلك كما قتلت ابـي حتى اكون قد بلغت اربي فقال لهما الزير اراكما قد اطلتما الكلام والعتاب فعند ذلك طعنه الجرو بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره فتقدم الزير فقطع راسه ثم وضع الزير فمه على عنق جساس وشرب دمه وكان الجرو ينهش في لحمه حتى بلغ مراده وشفي فؤاده وسلموا راس جساس الـى بعض العبيد ليعطوه الى اخوته وهجم مع قومه في باقي الابطال على بني مرة في الحال واذاقوهم الوبال وبلغوا منهم الآمال ولما علم بنو مرة بقتل جساس ايقنوا بالموت لانه كان القائد الاكبر وعليه الاعتماد في الحــرب والطراد فولوا الادبار وركنوا الى الفرار وقتل المهلهل منهم في ذلك النهار خلقا كثيرا منهم الامراء والقواد والسادات والامجاد واما الذين سلمـوا منهم فانهم طلبوا الامان من الزير والجرو فأجاروهم وعفوا عنهم بشرط ان يكونوا مثل العبيد لا ينقلون سلاحا ولا يحضرون حربا ولا كفاحا ولا يوقدون نارا لا ليلا ولا نهارا ولا يعرف لهم قبر ميت ولا دار الا مشتتين فـي البراري والقفار يقضون حياتهم بضرب الطبل ونفخ المزمـار وان غابت نساءهم بالنهار لا يسألها بعلها اين كانت بل يسألها عما جابت وليس لهم صفة غير الرقص والخلاعة فقبلوا بهذه الشروط بكل رضا وقناعة وبعد هذه الشروط تسلطن الجرو على كل القبائل نظير ابيه وطاعته وفرحت بنـات كليب وزال عنهم الغم والترح وخلعن عنهن سود الثياب وكان ذلك النهار عندهم اعظم من الاعيان وكان الجرو قد تزوج بثلاث بنات وولد له ولدان فسمى الواحد تغلب والثاني مالك ولما بلغا سن الرجولة زوجهما بابنتين شقيقتين وهما بنات الامير هلال حاكم حماة وزوج اخته اليمامة للامير مفايد ابن الامير المذكور وهكذا اتصل الحسب والنسب وخمدت نيران الحرب بين قبائل العرب وكان افرح الناس الامير مهلهل وكان الجرو قد عرض عليـه

الارض فتنشق القربة ويهرق الدم وأنا اصيح على جساس واقول له قد قتلت عدوك يا خالي تقدم اليه واقطع راسه فقد ذهب الكدر وبلغنا اليوم الوطر وعندما يأتي اليك فتقوم اليه بالعجل وتعدمه الحياة وهو لا يعلم بقدومي عليكم وبهذه الوسيلة تتم الحيلة ونتخلص من هذه الورطة الوبيلة فاستصوب الزير رايه ثم ودعهم وسار وحده الى ديار بني مرة وعند الصباح ركب الجرو في جماعة من الفرسان وساق مواشي بني قيس من الرعيان باتفاق الامير المهلهل ليث الميدان ففرح الامير جساس وسادات بني مرة وشكروا الجرو على هذه الغنيمة والنصرة وراى جساس في تلك الليلة حلما غريبا ابصر انه ربى ذئبا كان يوده ويحبه فلما انتهى وترعرع تصاحب مع سبع كاسر فألفه الى ان كان في بعض الايام اغار السبع على مواشي بني مرة وهجم على نسائهم واولادهم وجعل يفترس كبارهم وصغارهم وكان الذئب يساعده عليهم فاغتاظ جساس من افعال الاسد فسل السيف وهجم عليه يريد قتله واعدامه فوثب عليه الذئب من ورائه ونهشه فألقاه صريعا على الارض ففاق جساس مرعوبا من هذا الحلم ونهض في الحال وسار الى الديوان وجمع اخوته وباقي السادات والاعيان وأعلمهم بذلك المنام فقالوا له هذه اضغاث احلام وما زالوا يهونون عليه حتى راق وزال عنه القلق والكدر ولما اصبح الصباح ركب الزير يطلب الحرب والكفاح وركب الامير جساس وهو قلق وبراسه وسواس وكان الجرو قد وعد بهلاك القوم وقتل المهلهل وفي ذلك اليوم التقى الفريقان وبرز الجرو الى ساحة الميدان فبرز اليه الزير فالتقاه الجرو وطعنه بالرمح طعنة كاذبة فسحبها الزير من تحت ابطه فراحت خائبة والقى نفسه على الارض من ظهر الحصان خديعة على عيون الفرسان ليظهر لهم انه قد مات وحلت به الآفات فعند ذلك صاح الجرو الله اكبر على من طغى وتجبر فقد نلنا المراد بقتل الزير الذي اهلك العباد ثم انه صاح على جساس انزل يا خالي واقطع راس عدوك فقد قتلته وكفيتك شره فلما راى جساس الزير يتخبط بدمه فتقدم ونزل عن القميرة وهو يظن انه قد بلغ غاية مراده ولما اقترب منه نهض الزير على قدميه وقبضه من لحيته وهجم الجرو ايضا عليه ووضع الرمح بين كتفيه فعند ذلك علم جساس بأنها حيلة قد تمت عليه وتاكد عنده صحة المنام فاخذ يخاطب الجرو بهذا الشعر والنظام :

قال جساس الذي شاهد وفاه	يا سياج البيض في طعن القنا
اني بك يا ابن اختي مستجير	فاجرني يا ابن اختي من الفنا

الزواج فامتنع وكان منعكفا على الجلوس في الخيام واكل الطعام وشرب المدام واقام له الجرو عشرين عبدا برسم الخدمة وكان يرقد وينام وهو لابس آلة الحرب والصدام لانه كان قد اعتاد عليها مدة الحروب التي امتدت نحو اربعين عاما وكسور كما هو التاريخ المذكور . هذا ما كان من امر المهلهل في تلك الايام وسوف يقع له حديث وكلام واما الجرو فانه كان قد زوج اربعة من شقايقه الى جماعة من الامراء وصنع لهن ولائم وافراح مدة طويلة واما ولداه مالك وتغلب فانهما بقيا مدة خمسة عشر سنة ولم ينجبا اولاد من بنات الامير هلال المذكور وبعد نهاية المدة طلبت نساؤهما زيارة اهلهما في حماة فطلب ازواجهما من ابيهما الجرو ان يأذن لهما بذلك فامر لهما فسافروا مع نسائهم الى تلك الاطراف ولما علم الامير بقدوم اصهاره بنسائهم خرج لملتقاهم مع ولده الامير مفلح وخرجت معهما اليمامة زوجة الامير مفلح وخرج ايضا اكابر المدينة فالتقوهم بالترحاب والاكرام وانزلوهم في احسن مكان واقاموا في تلك الاوطان مدة من الزمان وهم في سرور وانشراح ولما صمم الامير مالك وتغلب على الرجوع الى الاطلال مات الامير مفلح مع ابيه الامير هلال فاقاما يحكمان في تلك الديار وانقادت لامرهما اهل تلك البلاد وكانا محبوبين من جميع العباد وكانت اليمامة بعد وفاة بعلها ذهبت الى عند اهلها فاتفق ذات يوم ان الامير مالك قال لاخيه تغلب اعلم يا اخي انه قد مضى علينا مدة من الزمان ولم نرزق بولد ذكر يبقى لنا ذكرا فدعنا نتزوج الان على نسائنا فلعل الله يرزقنا بأولاد والا انقطع نسلنا من بين العباد فأجابه تغلب من الصواب ان نصلي لله في هذه الليلة ونتضرع اليه ان يرزقنا اولادا من نسائنا لانه على كل شيء قدير فامتثل اخوه رايه وصليا تلك الليلة بحرارة قلب وانشد تغلب قائلا :

يقول الفتى تغلب على ما جرى له	بدمع جرى فوق الخدود نهور
أقول وفي قلبي من البين لوعة	وبي حسرات طي الفؤاد تثور
لفراق ابينا الجرو والزير عمنا	عليهم قلبي والحشا مكسور
يا رب يا رحمن يا سامع الدعا	عليك اتكلنا يا جابر المكسور
سألناك ربي بالخليل وابنه	حق الذي اليه العبيد تزور
فيا رب الرحمن اجبر قلوبنا	بجاه عيسى وموسى الفاضل المشهور
بجاه داود يحيى ومع الخضر	وبالعرش والكرسي وبحر النور
ترزقنا ولدين يحيوا ذكرنا	يا من ترزق للوحش وطيور

وكان الامير تغلب ينشد هذه الابيات واخوه مالك يقول آمين يا رب

العالمين فاستجاب الله دعاهما ولم يخيب شكواهما فما مضت مدة يسيرة حتى حبلت نساؤهما ولما تمت ايامهما ولدتا في يوم واحد فوضعت زوجة مالك انثى وزوجة تغلب ذكرا فقامت في الحي الافراح وكان ابوهما في الصيد والقنص فأرسلوا لهما بعض العبيد يبشرهما بذلك واسمه سرور فلما اقبل سألاه علامك يا سرور ابشير ام نذير واشار اليهما بهذه الابيات :

مقالات الداعي المسمى سرور	يا سادتي اتيتكم قاصد بشير
يا امير مالك أتاك بنت كالقمر	ووجا كالشمس والبدر المنير
وأنت يا تغلب اتاك غلام	يفرح القلب المتيم يا امير
اتيت أليكم حالا بلا بطا	فوق حمرا كأنها طير يطير
اريد منكم يا كرام بشارتي	اجبروا بالله قلبي الكسير

فلما سمعا كلام العبد فرحا فرحا شديدا واعتقا العبد واعطوه الف دينار ولما حضرا الى الحي امرا بذبح الذبائح واولما الولائم واقاما الفرح والسرور مدة شهرين كاملين وارسلا حالا يعلما اباهما وعمهما الزير ويبشراهما بذلك وسميا الغلام اوس والبنت مي وتعاهد الاخان على زواج البنت بالغلام اذا كبر ولما بلغ الجرو والمهلهل ذلك الخبر فرحا جدا وشكرا الله على هذه النعمة العظيمة وركب الجرو في جمع غفير من قومه وابطاله وساروا لمشاهدة اولاده لانه كان في غاية الاشتياق لهما ولما اقترب من تلك الديار وبلغ ولديه خبر قدومه خرجا لملتقاه في موكب عظيم وعندما التقوا ببعضهما سلما عليه ووقعا على يديه يقبلانها فقبلهما بين عينيهما ودعا لهما وسألاه عن عمهما فأجابهما انه بخير وعافية وانه ما زال في خيامه ملازم طعامه مع مدامه ثم سار الى المدينة وكان ذلك اليوم اعظم من يوم الزينة ونزل الجرو في القصر الكبير ووقف بخدمته الكبير والصغير والمأمور والامير واقام في تلك الديار مدة شهرين كاملين وفي اخر هذه المدة مرض ابنه تغلب مدة عشرة ايام ومات فحزن عليه الجرو حزنا عظيما وعملوا عليه مناحة عظيمة ودفنوه بكل احترام ولما عزم الجرو على الرجوع استدعى ولده مالك واوصاه بالرعية وان يعدل في حكمه وأن يزوج بنته مي بابن اخيه الاوس ثم سار يقطع القفار الى ان وصل الى اطلاله واجتمع باهله وعياله. اما الامير مالك فانه اعتنى بتربية ابنته وابن اخيه كما اوصاه جناب ابيه حتى كبرا وبلغا درجة الكمال وكان الاوس يركب ظهور الخيل ويتعلم الفروسية مع الفرسان واستمر على ذلك مدة من الزمان حتى صار من

صناديد الرجال وشاع ذكره في كل مكان وكانت ابنة عمه مي من اجمل النساء وكان الاوس يحبها محبة عظيمة فكانا كروح في جسدين وشاع ذكرها في قبائل العربان وتواردت على ابيها الخطاب وسمع بها الصناديد ابن الاكوع وهو ابن عم الملك تبع حسان فعشقها على السماع وكان من الملوك العظام فارسل وزيره ليخطبها من ابيها فلما وصل الوزير وعلم مالك بالخبر فقال والله نعم الصهر وبه انال الفخر على طول الدهر غير انه لا خفاك اطال الله عمرك وبقاك بأن ابنتي مخطوبة لابن عمها الاوس ونحن الان مباشرين بأمر العرس فلا يمكنني انقض الكتاب وهو الذي يمنعني عن الايجاب فقال له الوزير اكتب لي الجواب فكتب له هذه الابيات :

يقول الفتى مالك على ما جرى له	بدمع جرى فوق الخدود صدود
أيا غاديا مني على متن ضامر	تسابق لضرب المرهف المردود
تهدي هداك الله خذ لي رسالتي	اعطيه مكتوبي تنال سعود
اذا جيت للصنديد فقل له	بأني على طول الزمان ودود
وهي ترى مخطوبة لابن عمها	ومعها تربى والانام شهود
فحاشى لمثلي ان يخون اقاربه	وافسح زماني ثم اكون عنود
ترى الاوس روحي يا امير ومهجتي	وهو عندنا اعز من المولود
فلو كنت اعطيها لغير ابن عمها	لكنت اليوم اولى بالمقصود

فأخذ الوزير هذا الجواب ورجع لعند الصنديد واعطاه اياه فلما وقف على حقيقة الخبر خرج عن دائرة الصواب فغير زيه وتنكر وركب جواده وسار الى تلك الديار وحده وعند وصوله الى مضارب الامير لم يكن في الحي الا النساء والبنات فسأل بعض النساء عن غياب الرجال فقالت منهم من سار الى القبائل ليعزموا الناس للعرس والفرح ومنهم من ذهب مع الامير مالك للصيد والقنص ففرح بهذا الاتفاق وتقدم لنحو الصيوان واركز رمحه ووقف على الباب وقال هيا يا اصحاب البيت فقد اتاكم ضيف من ابعد مكان وكانت مي داخل الخبا فما ردت جوابا وما ابدت خطابا ولما ابطات عليه بالجواب عرف ان الصيوان خاليا من الرجال فانشد يقول :

قال الفتى الغريب الذي شكا	ولي قلب بين الجوانح ذاب
اتيت قاصد مالكا في حاجة	ولي ساعة واقف انا في الباب
يا اهل هذا البيت اين اميركم	واين مضى من الديار وغاب
يا ربة البيت الذي داخل الحما	ما لكم لا تردوا علينا جواب
الا فاخبروني يا بنات بحالكم	قلبي غدا لاجلكم مرتاب

اذا كان اهل الحي غابوا جميعهم اما فيكم كريمة ذات حجاب
فنقري ضيفا قد اتى من غربه وتسير اهاليها مع الغياب
اكيد ما كل النساء تسير الفتى ولا كل من يحوي الردية صاب

فلما سمعت مي شعره ونظامه وعرفت قصده ومرامه اخذتها الغيرة والمروءة لتستر عرض اهلها من القيل والقال واشارت قائلة :

تقول فتاة الحي مي التي شكت الا فاسمع للقول يا نجاب
يا مرحبا بالضيف لما زارنا لك الخير والاكرام والترحاب
انزل مكانك حتى احضر الغدا وتأكل من زادنا والشراب
انا بنت مالك راح للصيد والدي مع ابن عمي الاوس والاحباب
انزل حتى يرجعوا رجالنا ويأتوا لنحو الحي بعد غياب
فكم جاء الينا يا امير مثالكم خلائق كثيرة ما لهن حساب
نحن نحب الضيف اذا جاء محلنا انزل واجلس جانب الاطناب

فلما فرغت مي من شعرها ونظامها هام الصنديد في حبها ورفع ستار الخيمة بسنان رمحه فوجد صبية بديعة الجمال فزاد به الوجد والبلبال فصاحت من خلف الستار وقالت علامك تنظر بنات الملوك يا غدار ثم ردت منديلها على وجهها وقالت له لا شك انت قليل الحياء فان كنت ضيفا كما تقول فانزل كي آتيك بالغدا والا فما هذه الوقاحة ثم قالت لجاريتها اطلعي افرشي له حتى يجلس ويتغذى لبينما يأتي ابي من البرية فقالت له الجارية انزل في الصيوان فقال لها عيب علي ان انزل عند الحريم وانا سيد عظيم وانا ما اتيت الى هذه الا لاخذ مي الى الاطلال واتزوج بها بالحلال وقد نلت مرادي وحصلت مسرة فؤادي ثم انه دخل الى ذلك المكان وهو مسرور فرحان وسحب مي من خدرها واردفها خلفه وسار يقطع القفار ويوصل سير الليل بالنهار حتى وصل الديار ولما سمعت اكابر قومه بقدومه ظافرا غانما اجتمعوا اليه وهنوه بالسلامة وسالوه عن سفرته وما جرى له في غربته فقال اني عند وصولي الى الاطلال هجمت على الفرسان والابطال ومددت اكثرهم على الصحصحان وفعلت فعالا تذكر على مدى الايام وقتلت مالك وابن اخيه الاوس واتيت الى هنا بالعروس وقد بلغت غاية المنى فلما سمعت مي هذا الكلام كان عليها اشد من ضرب الحسام فنهضت على الاقدام وقالت له امام السادات والاعيان لقد نطقت بالزور والبهتان فوحق الاله الديان لو كان ابي وابن عمي حاضران لما كنت

رجعت سالما الى اوطانك واجتمعت باهلك وخلانك ولكنك خطفتني بالاحتيال وهربت في الحال قبل ان تدركك الرجال ويحل بك الوبال ثم انها بعد هذا الكلام بكت بدموع سجام ولما سمع الحاضرون فحوى كلامها خافوا من العواقب وعلموا ان الصنديد في حديثه كاذب واما الصنديد فانه اغتاظ من هذا الكلام فنهض ولطمها على وجهها وقال لها هكذا تتكلمين يا بنت اللئام امام السادات الكرام ثم سل سيفه من غمده واراد ان يعدمهـــا الحياة فعند ذلك وثب الوزير وباقي الامراء وردوه عن ذلك العمل وقالوا له انت امير تجعل عقلك كعقل النساء فماذا تقول عند الملوك اذا سمعت بذلك وما زالوا يتوسلون بالكلام حتى لان وكان له سجان قلبه اقوى من الصوان فاستدعاه اليه فحضر وكان اسمه عمران بن الازور فقال له خذ هذه الملعونة الى بيتك وسلمها الى زوجتك لتقيدها بالحديد وتعذبها العذاب الشديد وتلبسها ثياب الشعر وتضربها خمس مرات في النهار وتطعمهـا خبز الشعير فأخذها الى زوجته واخبرها بأمر الصنديد فقالت ان هـــذه الصبية لا تستحق الضرب والانتقام ولا تستأهل غير الاعزاز والاكرام وهي كأنها بدر التمام وكيف العمل ونحن عبيد الملك الصنديد فعند ذلك نزعت عنها ثيابها الحريرية والبستها ثوبا من شعر الخنزير وارادت ان تضربها بالسوط على قدميها فوقعت على رجليها وجعلت تبكي وتثني عليها ثـــم انشدت تقول :

بالله ان ترني الـــى احوالي فالدهر فوق صحبتي وعيالي
يا وحدتي يا ذلتي يا غربتـــي قد صرت بعد العز بالاغلال
قد كنت في جاه ورفعة منصب واللــــه ربـــي عالم الاحـــوال
فترفقي هذا النهار بحالتـــي فلعل ربي يستجيب لحالـــي
ويعيدني بعد العناء لموطنـــي وارى جميـــع الاهل والعيالي
اني كريمة مـــن اكابر معشر فاقو الورى بالجاه والافضال
ولهم وقائع في البلاد جميعها بين الملوك وزمــــرة الابطال

فلما فرغت من شعرها ونظامها رق قلبها عليها وقالت لها قري عينا وطيبي قلبا فاني سأعمل معك معروفا لوجه الله ثم جاءت بجلد جاموس وفصلته ثوبا والبستها اياه تحت الثياب وقالت متى ضربتك لا تشعريـــن بالضرب وقصدي ان يسمع الملك صوت الضرب وانت تصيحين وتستغيثين

وانا اقدم لك طلبك من الاكل والمشروب وفي الليل تخلعين ثوب الجلد وترقدين براحة ليأتي الله بالفرج فشكرتها على معروفها ودعت لها بطول العمر ووعدتها بالجميل والخير الجزيل. هذا ما جرى لي اما ابوها فانه عند رجوعه من الصيد سمع الصياح والبكاء فسأل عن الخبر فاخبرته زوجته بواقعة الحال فغاب عن الصواب من شدة الغيظ واما الاوس ابن عم الصبية فانه غشي عليه لانه كان يحبها محبة عظيمة ولما فاق انشد يقول:

يقول الاوس ابن تغلب قصيدا	الا يا مي من هذا دهاك
أتاك اللص في غيبة ابيك	ولم يعلم بمن يسعى وراك
الا يا بنت عمي لو تريني	على فقدك انا محزون وباكي
ترى في اي ارض قد حللت	فما قلبي غدا يطلب سواك
فلا بد لي اغزي ديار	واقتله وافرح في لقاك
وابذل كل مجهودي لاجلك	وروحي بعد ذلك هي فداك
لما قال الفتى الاوس بن تغلب	فقلبي قد تعلق في هواك

فلما فرغ الاوس من هذا الشعر والنظام وقع مغشيا عليه وبقي طول ذلك الليل في غم وقلق شديد ما عليه من مزيد فجعل عمه يلاطفه بالكلام ويقول له طب قلبا يا ولدي فما يصلح الحزن الا للنساء فاصبر لبينما نرسل من يكشف لنا خبر ذلك الرجل وبعد ذلك نسير الى دياره فنخربها ونسبي حريمه وعياله فقال الاوس من يذهب فوالله لا يذهب غيري ولا سرت الا وحدي ولا اريد رفيقا ولا معينا الا رب العالمين ثم نهض واعتد بآلة حربه وجلاده وركب جواده وودعهم وسار وجد في قطع القفار ودموعه تجري كما الانهار وهو لا يدري الى اين يذهب والى اي حلة يقصد من قبائل العرب الى ان وصل الى وادي عميق ضيق الطريق كثير الاشجار والوحوش والاحجار فبينما هو يتأمل ذلك المكان واذ ظهر عليه احد الفرسان وهو بالسلاح الكامل والفروسية، لها علائم ودلائل فلما رأى الاول منفردا مال اليه وقال له انزل يا جبان عن الحصان واخلع ما عليك من الثياب وفز بنفسك في هذه الهضاب قبل ان اسقيك كاس العطب فانا جمرة بن مرة فارس العرب فلما سمع الاوس هذا الكلام صار الضيا في عينيه كالظلام وهجم عليه في الحال وصدمه صدمة تزعزع الرجال فالتقاه جمرة والتحما في ساحة المجال واشتد بينهما القتال وتجاولا ساعة من

الرمان وهم في ضرب وطعان تقشعر منه الابدان فاختلفت بينهما طعنتان قاتلتان وكان السابق الاوس بن تغلب فجاءت في صدر جمرة خرجت تلمع من ظهره فوقع قتيلا وفي دمه جديلا فأخذ عدته وجواده وجد في المسير وهو يقطع البراري والاكام مدة خمسة ايام واتفق في اليوم الخامس انه التقى بفارس وهو يجد في قطع القفار كالسهم الطيار فتقدم اليه وسلم عليه وقال له الى اين انت سائر والى من تنتسب من القبائل والعشائر قال انني من بني عبس وعدنان اصحاب الفضل والاحسان واني سائر الى ديار بني عامر لاستدعي حامينا عنتر بن شداد فارس الخيل لانه سار مدة عشرة ايام ليحضر وليمة دعاه اليها عامر بن الطفيل وفي غيبته غزانا عمرو ابن معدي كرب الزبيدي في خمسة الاف فارس فحاربنا محاربة شديدة وجرى بيننا وبينه وقائع عديدة فارسلني مولاي قيس بن زهير لاستدعيه للحضور قبل ان يظفر بنا عمرو المذكور فقال الاوس وقد تعجب ومن هو عنتر بن شداد فقال هو فارس الصدام الذي اشتهر ذكره في هذه الايام بطعن الرمح وضرب الحسام وقهر كماة الجبابرة وحارب الملوك الاكاسرة والقياصرة وافتخر على الفرسان في ساحة الميدان فلما سمع الاوس هذا الخبر تحير وانبهر ثم ودعه وجد في قطع البر الاقفر وما زال يقطع البراري والاكام مدة سبعة ايام حتى اشرف على جماعة من العبيد ترعى الاغنام فحياهم بالسلام وسألهم عن ابنة عمه بهذا الشعر والنظام :

يقول الفتى المضني على ما به ... دمعي من فوق الخدود سائح
الا يا عبيد الخير بالله شفعوا ... لصب بعيد الدار ولهان نازح
فمن يجمع بين مستهام ملوع ... تركه البين مضنى كثير فوائح
لقد ضاع لي حرة عفيفة عن الخبا ... فهل من يبشرني بها فوالح
ويخبرني لاي البلاد توجهت ... من اجلها ناري تزيد اللفايح
لقد احرقت قلبي ولبي ومهجتي ... وكل عظامي اوثقتهم جرايح

قال الراوي فلما فرغ الاوس من كلامه تقدم اليه كبير الرعيان وكان اسمه مرجان وقال له اعلم يا غلام انه من برهة عشرة ايام سبى اميرنا الصنديد ابنة اسمها مي لا يوجد اجمل منها في نساء هذا الحي فاراد ان يتزوجها فامتنعت عنه ولم تمل اليه فقيدها بقيود من حديد وهو كل يوم يعذبها العذاب الشديد فعسى تكون الحرة التي ذكرتها في نظمك افرج الله

همك وغمك فلما سمع الاوس هذا الكلام استبشر ببلوغ المرام ونزل عن ظهر الحصان وقبل العبد مرجان ووعده بالجميل والاحسان فبينما هو بالحديث والكلام اذ بسعد بن اخت الصنديد قد اشرف في ذلك الوقت ليتفقد المراعي فنظر الاوس فاستغربه فسأل بعض العبيد فقال له هذا ابن عم الصبية مي التي عند خالك الصنديد وقد جاء ليكشف اخبارها ويرجع بها الى ديارها فلما سمع هذا الكلام رجع الى عند خاله واعلمه بما راى واشار اليه يقول :

قال سعد قد اتيتك منذرا	يا خال فاسمع مني الاخبارا
البنت التي غربتها عن اهلها	من خلفها فارس اتاك جهارا
يا خال فارس في اللقا مجرب	وعيونه يا خال تقدح نارا
أن كان راقت لك ليالي الصفا	فبصفوها تأتي لك الاكدارا
قد جاء الى عند العبيد يسأل	انبؤه فجاء كالاسد الهدارا
لما سمعت اتيت نحوك عاجل	هذا الذي تم يا خال وصارا

فلما فرغ سعد من شعره ونظامه وفهم الصنديد فحوى كلامه قال له فارس واحد قال نعم ايها السيد المحتشم فشتمه خاله وقال ارجع وخذ روحه من بين جنبيه فانه لا يليق بي ان اركب لقتال صعلوك من صعاليك العرب فخرج سعد من عند خاله وقصد الاوس فلما اجتمع به وصاح فيه وحمل عليه فالتقاه الاوس كالاسد وضربه بالحسام المهند فالقاه على الارض ممدد وأخذ سلبه وثيابه ولما بلغ خاله الخبر طار من عينيه الشرر وركب ظهر جواده واعتد بعدة جلاده وقصد الاوس حتى التقى به فانطبق عليه كليث الآجام وأخذ معه في القتال والكفاح ولم تكن الا ساعة حتى اثخن بالجراح فولى وطلب لنفسه الهرب فتبعه الاوس مثل السرحان حتى وصل الى الصيوان فدخل الصنديد واحتمى عند الحريم وقالت له زوجته سعداً علامك داخل وانت مرعوب كل هذا لاجل الابنة التي خطفتها وما نلت المرغوب فانك تستحق اكثر من ذلك ثم وبختته بالكلام وقالت له انت تدعي الفروسية على كل احد وتهرب من امام امرد وصاح الاوس اخرج يا لئيم من بين الحريم حتى اجازيك على تلك الفعال يا غدار يا محتال فخاف الصنديد وقال لزوجته اعطيه مي واكفيا شره فخرجت زوجته اليه وقبلتا طلبت منه العفو والسماح فأعطاهم الامان فجاؤا له بابنة عمه مي بعد ا،

البسوها الثياب الفاخرة وذبحوا لهم الذبائح وقدموا لهم الاطعمة المتكاثرة ولما اجتمع بها زال عن قلبه الكدر ومن فرحه اخذ يسكب العبرات وهكذا فعلت مي وكان ذلك النهار عندها كيوم العيد حيث التقت بحبيبها الوحيد.

قال الراوي فباتا تلك الليلة في الحلة وعند الصباح اركبها في هودج وسارت معه جماعة من العبيد وتوجه قاصدا دياره ولما اقترب من بلاده ارسل يبشر عمه الامير مالك بقدومه وشاع الخبر في الحي فخرجت النساء والبنات واكابر السادات ولما اجتمعوا ببعضهم البعض نزل الامير مالك فسلم على الاوس وابنته وشكر ابن اخيه على افعاله وعند وصوله الى الخيام حدثهم بحديث عنتر ما سمع عنه من الخبر فقال عمه والله سمعنا بذكره وانه من افرس فرسان عصره وبعد ذلك ذبحوا الذبائح واولموا الولائم ثم زفوا الاوس على ابنة عمه فكانت ليلة من اعظم الليالي حضرها جمهور من السادات والموالي فزادت افراح الاوس بتلك العروس وحظي بذلك الحسن والجمال وعاش معها بأرغد عيش واحسن حال وبعد ذلك وضعت له غلاما سماه مالك وله حديث طويل فاتفق بعد عشرة ايام ان عم الاوس ضعف ضعفا شديدا وبعد مدة مات فحزن الاوس عليه ودفنه بالاحترام والوقار وبكت عليه الكبار والصغار لانه كان موصوفا باللطف والايناس ومحبوبا من جميع الناس وارسل يعلم جده بذلك فحزن وتكدر فقالت اخته اليمامة ارسل يا اخي واحضر ابن ابنك الاوس مع اهله ليجتمع شملنا مع شمله فاجابها الى ذلك وفي الحال ارسل رجل من بني عمه ليحكم مكانه فجاء الاوس مع اهله وسكن عند الجرو وجده وراق لهم الزمان اما ما كان من البطل الهمام صاحب الذكر الشهير المدعو بسالم الزير فانه كان قد احناه الدهر وضعفت قواه وهو مع ذلك مواظب على اكل الطعام وشرب المدام وكان لا ينام الا وهو لابس عدة الحرب والصدام وما زال على هذا الحال حتى برز له اسنان جدد وصار عقله كعقل الولد وكانت بنات اخيه تخدمه وتداريه فاجتمع يوما بالجرو وقال يا ابن اخي قد ضاقت اخلاقي من الوحدة والانفراد فأريد ذلك ان تسلني مع بعض الاتباع للتنزه في البلاد فاجابه الى ما طلب واركبه في هودج واعطاه عبدين برسم الخدمة وجميع ما يحتاج اليه من لوازم السفر فودعه المهلهل وما زالا يجولان به حتى اقتربا من بلاد الصعيد وكانا قد تعبا من مشقة الطريق وهما يلاقيان من

التعب اشد الضيق فصمما على قتله واعدامه بالكلية ويقولان لاهله قد ادركته المنية فعرف الزير ذلك منهما فقال قد دنا حمامي وليس الا القبر امامي فاذا ادركتني منيتي اريد منكما ان تبلغا اهلي وصيتي قالا وما هي فعاهدهما على حفظها وتأديتها فحلفا له باعظم الاقسام بانهما يبلغونها بالكمال والتمام فقال اذا وصلتم الحي فاقريا اهلي مني السلام وانشداهم هذا البيت وقولا لهم اني في القبر قد اختبيت :

من مبلغ الاقوام ان مهلهلا ... لله دركما ودر ابيكما

وكرره عليهما حتى حفظاه ولما دخل الليل ذبحاه ودفناه تحت التراب ورجعا الى ديارهما ودخلا على سيدهما الجرو واعلماه بموت عمه الزير فبكاه بكاء شديدا هو ومن حضر ثم ان العبدين اقتربا من الجرو وانشداه البيت المذكور .

فلما سمع الجرو هذا البيت استغربه حيث لا معنى له فاستدعى اخته اليمامة وكانت من اذكى نساء العرب وعلمها عمها ذلك البيت فلطمت على وجهها وبكت وقالت ان عمي لا يقول ابياتا ناقصة بل اراد ان يقول :

من مبلغ الاقوام ان مهلهلا ... اضحى قتيلا في الفلاة مجندلا
لله دركما ودر ابيكما ... لا يبرح العبدان حتى يقتلا

ثم انهما قبضا على العبدين والقوهما تحت العذاب والضرب الشديد فاقرا بانهما قتلاه ودفناه فقتلهما الجرو في الحال وهكذا انتهت حياة الزير وقد اخذ ثاره في حياته وبعد مماته وبعد وفاة الزير وضعت امراة الاوس غلاما سموه عامرا ولما بلغ سن الرجولة تزوج بامراة من اشراف العرب فولدت له في نفس الليلة التي مات فيها جده الجرو غلاما فدعاه هلال وهو جد بني هلال وكان من اعقل العرب ولما كبر الامير هلال تزوج بامراة ذات حسن وجمال فولدت له غلاما ادعاه المنذر واتفق ان هلالا زار مكة في بعض السنين في اربعمائة فارس كرار وكان وقتئذ ظهور النبي المختار صلى الله عليه وسلم وعند وصوله ضرب الخيام وطاف هو ورجاله حول الحرم

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٢٦٠ لسنة ١٩٨٩

مطبعة أوفسيت الانتصار

فلما فرغ كليب من كلامه انزل الزير القرب عن ظهر الأسد
وضربه بالسيف والقاه قتيل ثم قطع رأسه امام اخيه وقال الله اكبر
فقد اخذنا بثأر الحمار وبلغنا ما نحب ونختار بعون الواحد القهار فأمر
الخدام ان يدخلوا الزير الى الحمام فدخل واغتسل ولبس حلة من ارجوان
وذهب الى اخيه في الديوان فقام له على الاقدام واكرمه غاية الاكرام
واجلسه في اعلى مقام فزاد اعتباره عند الامراء والاكابر واشتهر اسمه
بين القبائل والعشائر وقال له كليب ذات يوم اطلب يا اخي ماذا تريد
فإن شئت مدينة اوهبتك اياها او امرأة جميلة ازوجك بها ومالي بين
يديك ولا ابخل بشيء عليك لأنك اليوم ساعدي وزندي وانت الحاكم
من بعدي فقال لا اريد سوى سلامتك الذي اريده منك أن تأمر لي
بصيوان كبير مفروش بالفرش الفاخر عند بير السباع ويكون عندي جماعة
من الخدم يقدمون لي ما احتاجه .

